

الفصل الرابع

كشف الخداع من خلال الكلمات، أو الصوت، أو حركات الجسم

«كيف يمكنك معرفة أنني ربما كذبت؟».

«ولدي العزيز، يمكن كشف الأكاذيب بسهولة، وعلى الفور؛ فهي على نوعين: الأول، أكاذيب حبالها قصيرة، وأخرى حبالها طويلة يصعب كشفها. وكذبتك، أنت يا بنوكيو، من النوع الثاني» بنوكيو، 1892م.

يندر كذب الأشخاص إذا اعتقدوا أنّ هناك علامة على كذبهم، ولكن لا توجد مثل تلك العلامة. لذا، لا توجد علامة على الخداع نفسه، ولا إيماءة، ولا تعبير على الوجه، أو شدّ عضليّ يعني أنّ الشخص يكذب، هناك قرائن فقط على أنّ الشخص ليس مستعداً بصورة جيدة، وقرائن على العواطف التي لا تناسبه، وهذا يقدم قرائن على التسرب أو الخداع، ويجب على مكتشف الأكاذيب تعلم كيفية تسجيل العاطفة في الحديث، والصوت، والجسد، والوجه، ودلائل أخرى، على الرغم من محاولات الكاذب إخفاء عواطفه، وما يعطي صوراً عاطفية غير صحيحة، حيث يتطلب الكشف عن الخداع فهماً لكيفية كشف هذه السلوكيات حال شروع الكاذب في كذبه.

إنّ اكتشاف الكذب ليس أمراً سهلاً، حيث تتمثل إحدى المشكلات بكمّ المعلومات الهائل، فهناك الكثير للتفكير به في آن واحد، وكثير من المصادر؛ الكلمات، والحبسات، ونبرة الصوت، والتعابير، وحركات الرأس، والإيماءات، والوقفات، وشدة التنفس، والتورّد،

والشُّحوب، والتَّعَرُّق، وما إلى ذلك، وقد تنقل هذه المصادر جميعها المعلومات في آن واحد أو في أوقات متداخلة، وتتنافس على جلب انتباه مكتشف الأكاذيب، ولحسن الطالع، لا يحتاج مكتشف الأكاذيب إلى التدقيق في كلِّ ما يسمعه أو يراه بالقدر نفسه من الاهتمام، فليس كلُّ مصدر من هذه المصادر موثقاً فيه خلال المحادثة، فبعضها يتسرب بصورة أكبر من غيره، ومن الغريب أن يركز معظم الأشخاص انتباههم على المصادر الأقل مصداقية فيما يكمن خلفها، وهي الكلمات وتعابير الوجه التي يمكنها أن تكون مضللة بسهولة.

عادة، لا يراقب الكذابون أو يتحكمون في سلوكهم جميعه أو يخفونه، وقد لا يستطيعون القيام بذلك حتى لو أرادوا ذلك. وليس من المرجح أيضاً أن يستطيع أيُّ شخص التحكم الناجح في كلِّ شيء يفعلُه للخداع من أخمص قدميه إلى قمة رأسه، بدلاً من ذلك، يخفي الكذابون ويزورون ما يعتقدون أن الآخرين يبحثون عنه أكثر، ويميل الكذابون إلى الحذر حيال اختيار الكلمات. في أثناء عملية النمو، يتعلم كلُّ إنسان أن معظم الأشخاص يستمعون جيداً لما يُقال. لذا، تلقى الكلمات اهتماماً كثيراً من هذا القبيل؛ لأنها الأكثر غنى، وأكثر طريقة مميزة للتواصل. وعليه، يمكن نقل كثير من الرسائل، وبسرعة أكبر، من خلال الكلمات أكثر من تعابير الوجه، ونبرات الصوت، وحركات الجسم. يعي الكذابون كلَّ كلمة مما يقولون، ويخفون الرسائل التي لا يريدون إيصالها بحذر، لأنهم يعلمون أن الجميع ينتبهون لهذا المصدر أو ذاك، بل لأنهم يعلمون أنهم محاسبون على كلماتهم أكثر من نبرة صوتهم، أو قسَمات وجوههم، أو معظم حركات أجسامهم، يمكنهم إنكار أيِّ تعبير غاضب، أو نبرة حادة في الصوت. ويمكن أن يقف المتهم موقفاً دفاعياً فيقول: أنت سمعت ذلك بالطريقة تلك. لم تكن هناك نبرة غضب في صوتي، ولكن من الصعب إنكار قول كلمة غاضبة، فهي موجودة ويمكن إعادة بسهولة، ويصعب التنصّل منها نهائياً.

والسبب الآخر لمراقبة الكلمات بدقة هو أنها العنصر الرئيس للتطوير، علاوة على أنه يسهل تزويرها حيث تذكر أشياء غير حقيقية من خلال الكلمات، بالإضافة إلى أنه يمكن كتابة ما يجب أن يقال تماماً وإعادة صياغته في وقت مبكر، ولا يتمكّن إلا الممثل الذي تلقى تدريباً مرتفع المستوى من التخطيط بالتحديد لكلِّ تعبير في الوجه، وإيماءة، ونبرة صوت، ومن السهل التدريب على الكلمات مرة تلو أخرى، ولتلقّي المتحدث ملاحظات مستمرة،

بسماعه لما يقول، لذا فهو قادر على التَّحكُّم في أقواله، أما تعابير الوجه وحركات الجسم ونبرة الصوت فهي أقلُّ دقَّة.

يحظى الوجه بعد الكلمات بأكبر قدر من اهتمام الآخرين. ويتلقى الأشخاص ردود فعل عما تبدو عليه وجوههم، مثل: امسح تلك النظرة عن وجهك، ابتسم عندما تقول ذلك، لا تنظر إلي بوقاحة. ويتلقى الوجه انتباهاً جزئياً؛ لأنه علامة ورمز للذات. إنه الطريقة الرئيسية التي تجعلنا نميِّز شخصاً من آخر، فالوجوه أيقونات، يُحتفى بها على هيئة صور معلقة على الجدران، أو موضوعة على المكاتب، أو محمولة في المحافظ (الجزادين)⁽¹⁾. وقد وجدت البحوث الحديثة أنّ جزءاً من الدماغ مخصَّص للتعرف إلى الوجوه⁽²⁾.

هناك عدد من الأسباب الأخرى التي تفسّر حرص الأشخاص على الانتباه للوجوه، فالوجه مرآة العواطف. وإلى جانب الصوت، فقد يساعد الوجه السامع على معرفة كيفية شعور المتحدث عمّا يقال، ولكن لا يُشترط أن يكون ذلك دقيقاً دائماً؛ إذ إنّ الوجوه قد تكذب العاطفة، وإذا كانت هناك صعوبة في السمع فقد تساعد مراقبة شفاه المتكلم المستمع على معرفة الكلمات المنطوقة، قد يوفر الانتباه للوجه إشارة مهمة ضرورية للتحدث والمتابعة، حيث يرغب المتكلمون معرفة ما إذا كان مستمعوهم ينصتون لهم أم لا، فضلاً على أنّ النظر إلى وجه المتحدث يشير إلى ذلك، ولكنه لا يعدُّ الإشارة الأكثر مصداقية.

قد يراقب المستمعون المؤدّبون الذين يشعرون بالملل وجه المتحدث في حين تكون أذهانهم شاردة في مكان آخر. ويعزّز المستمعون المتحدث بإيماءات الرأس، والتمتمات ولكن هذه الإشارات أيضاً يمكن تزييفها.*

وبالمقارنة مع الاهتمام الشديد بالكلمات والوجه، لا يتلقى الجسم والصوت القدر نفسه من الاهتمام. ولكن الخسارة ليست كبيرة؛ لأنّ الجسم يقدم قدراً أقلّ من المعلومات مقارنة مع ما يقدمه الوجه. كذلك، تعدّ المعلومات التي يقدمها الصوت قليلة مقارنة بالكلمات، قد تشي حركات اليدين بكثير من الرسائل، كما تفعل في لغة الصّم، لكنها ليست شائعة في

* يعتمد معظم الأشخاص عندما يتحدثون على استجابات المستمع، وإذا حرموا منها يسألون بسرعة: هل تسمعون؟ هناك عدد قليل من الأشخاص الذين يمكن النظر إليهم على أنّهم نظم مغلقة؛ لا يبالون بمستمعهم ولا باستجاباتهم التشجيعية عندما يتحدثون.

المحادثات بين شعوب شمال أوروبا والأمريكان من الخلفية نفسها، إلا إذا حُظر التخاطب.* مثل الوجه، يمكن للصوت إظهار ما إذا كان الشخص عاطفياً أم لا، ولكن لم يعرف حتى الآن ما إذا كان الصوت يقدم كمية المعلومات التي يقدمها الوجه حيال أيّ المشاعر هي الصادقة بدقّة.

يراقب الكاذبون كلماتهم وجوهرهم، ويحاولون السيطرة عليهما، أي على ما يعرفون أنّ الآخرين يركزون عليه، أكثر من نبرات أصواتهم وإيماءات أجسامهم، وسينجحون أكثر بكلماتهم مقارنة بالوجوه. فالتزوير بالكلمات أسهل مقارنة بتزوير تعابير الوجه؛ لأنّ من الممكن التدرب على الكلمات— كما ذكرنا سابقاً— أكثر من تعابير الوجه، علاوة على أنّ الإخفاء أيضاً أسهل. يستطيع الأشخاص بسهولة مراقبة كلماتهم أكثر من وجوههم، ومنع كلّ ما يمكنه أن يشي بهم. من السهل معرفة ما يقوله الشخص، ولكن الصعب هو معرفة ما يظهره وجهه. والأمر الوحيد الموازي لوضوح التعليقات التي تتجم عن سماع الكلمات في أثناء التحدث، هو وجود مرآة موضوعة في مكان ثابت تظهر كلّ تعبير.

في حين أنّ هناك أحاسيس في الوجه قد توفر المعلومات من خلال توتر العضلات وحركاتها، لقد اثبت بحثي أنّ معظم الأشخاص لا يستفيدون من هذه المعلومات. وعدد الذين يدركون التعابير التي تظهر على وجوههم قليل حتى تصبح التعابير بيّنة الوضوح.**

هناك سبب آخر مهم لوجود قرائن خداع في الوجه أكثر مقارنة بالكلمات، حيث يرتبط الوجه مباشرة بمناطق الدماغ المعنية بالعاطفة، أما الكلمات فليست كذلك. لذا، عندما تُستثار العواطف، تبدأ عضلات الوجه بالتحرّك لا إرادياً، فقد يتعلم الأشخاص التحكم في حركاتها عن طريق العادة، أو اختيار التعابير التي يريدونها، ويحاولون بدرجات متفاوتة

* مثلاً، يستخدم عمال المناشير الذين عليهم التّواصل فيما بينهم، ولكنهم لا يستطيعون القيام بذلك من خلال الكلمات بسبب الضجة— نظاماً معقداً جدّاً من حركات الأيدي. وللسبب نفسه، يستخدم الطيارون وطواقم هبوط الطائرات نظاماً معقداً من الحركات أيضاً.

** لم يتأكد علماء الأعصاب من الدوائر التي تقدم لنا معلومات تغيرات التعابير الشخصية، أو ما إذا كانت التغيرات في العضلات أو في الجلد الموصول بها، ويختلف علماء النفس بمدى معرفة الأشخاص تعابير وجوههم الشخصية عند ظهورها، وتشير دراساتي إلى أننا لا نشعر بالتعابير التي نقوم بها جيداً، وبأننا لا ننتبه لأحاسيس وجوهنا معظم الوقت.

النجاح بإخفائها. لا يتم اختيار تعابير الوجه الأولية التي تبدأ عند استثارة العاطفة، إلا إذا كانت غير صادقة، وتعدّ تعابير الوجه مزدوجة النظام؛ إرادية ولا إرادية، كاذبة وصادقة في الوقت نفسه. وهذا هو سبب أنها معقدة ومحيرة ومدهشة. سأناقش في الفصل اللاحق، الأساس العصبي للتمييز بين التعابير الإرادية واللا إرادية.

يجب أن ينتبه الأشخاص المتشككون لنبرات الصوت وحركات الجسم أكثر، حيث يرتبط الصوت كما الوجه بمناطق الدماغ المعنية بالعاطفة، ومن الصعب إخفاء تغيرات الصوت التي تحدث عندما تستثار العواطف. إن ردة الفعل المعنية بما يبدو عليه الصوت ضرورية للكاذب لمراقبة نبذة صوته، والتي لن تكون بجودة سماع الصوت عند إخراجه الكلمات. في المرة الأولى، يتفاجأ الأشخاص وهم يسمعون فيها أنفسهم على الشريط المسجل؛ لأنّ المراقبة الذاتية للصوت تأتي جزئياً من خلال توصيل العظام وتبدو مختلفة.

يُعدّ الجسم مصدراً جيداً للتسرب وقرائن الخداع. وعلى عكس الوجه أو الصوت، لا ترتبط معظم حركات الجسم بمناطق الدماغ المعنية بالعاطفة. لذا، فإنّ مراقبة حركات الجسم ليست صعبة. فالشخص يشعر ويرى ما يقوم به جسمه غالباً، يمكن أن يكون إخفاء حركات الجسم أسهل بكثير من إخفاء تعابير الوجه أو تغيرات الصوت في العاطفة. ولكن معظم الأشخاص لا يكثرثون بذلك، فقد كبروا وتعلموا أنّ القيام بذلك غير ضروري، ونادراً ما يتحمل الأشخاص مسؤولية ما يكتشفونه من حركات أجسامهم، وتتسرب حركة الجسم بسبب تجاهلها؛ فالجميع مشغولون بمراقبة ملامح الوجه وتقييم الكلمات المنطوقة فقط.

في حين يعلم جميعنا أنّ الكلمات قد تكذب؛ أشارت دراساتي إلى أنّ الأشخاص يصدقون الآخرين وغالباً ما يتم تضليلهم، ولا أقترح هنا تجاهل الكلمات تماماً؛ إذ يقترف الأشخاص أخطاء لفظية تقدّم قرائن خداع وتسرباً، وحتى لو لم تكن هناك أخطاء في الكلمات، فإنّ ما يفضح الكذبة هو التناقض بين الكذبة المنطوقة وما يكشفه كلّ من الصوت والجسم والوجه. ولكن معظم قرائن الخداع الموجودة في الوجه والجسم والصوت يتم تجاهلها أو إساءة تفسيرها، وقد وجدت ذلك في عدد من الدراسات التي طلبت فيها إلى الأشخاص الحكم على أشخاص آخرين من خلال عرض أشرطة تسجيلية (فيديو) عنهم.

لقد رأى بعضهم قسماً الوجه فقط، في حين رأى آخرون حركات الجسم، وآخرون سمعوا الحديث الذي يمر عبر مصفاة جعلت الكلمات غير مفهومة، ولكنها تركت الصوت سليماً، أما بقيتهم فقد سمعوا الكلمات أو قرؤوها، رأى الجميع الأشخاص أنفسهم، طالبات التمريض في الفصل السابق اللواتي صدقن أو كذبن عن شعورهن في أثناء مشاهدة الأفلام، تذكر أنهن في المقابلات الصادقة شاهدن فيلماً ممتعاً عن المحيط وتلقين تعليمات لوصف مشاعرهن بصدق.

وفي المقابلات غير الصادقة، شاهدن فيلماً جراحياً طبياً يحتوي على مشاهد دموية، وتلقين تعليمات لإقناع الشخص الذي يجري المقابلة أنهم يشاهدن فيلماً ممتعاً عن الأزهار، لم يستطع الشخص الذي يجري المقابلة معرفة الفيلم الذي شاهدته، حاولت الطالبات جاهدات تضليل الشخص الذي يجري المقابلة؛ لأن الأخطار كانت عالية. واعتقدن أن التجربة اختبرت مدى قدرتهن على التحكم في ردود أفعالهن العاطفية في غرفة الطوارئ أو العمليات.

وفي دراستنا لقدرة الأشخاص على اكتشاف متى كانت الطالبات كاذبات، لم نكن مهتمين بمعرفة المصدر الأفضل فقط (الوجه، أم الجسم، أم الصوت، أم الكلمات)، ولكن فيما إذا كان أداء الأشخاص المتشككين أفضل مقارنة بالذين توقعوا التضليل، قُسم الأشخاص الذين كان عليهم رؤية أشرطة الفيديو أو سماعها إلى مجموعتين؛ الأولى، متشككة بسبب ما قلناه عن نوعية الطالبات في الأشرطة. والأخرى أبقيناها دون أن يراود أفرادها شك من أجل جعلهم يدلون بأحكام عن الطالبات، المجموعة المتشككة لم تُبلغ بأي شيء عن التجربة، ولم يُذكر لهم أي شيء عن الخداع أو الكذب المحتمل وقوعه، وأبلغناهم فقط أنهم سيشاهدون أو يسمعون الطالبات يتحدثن عن فيلم كنّ يشاهدنه، وحتى لا يستثار الشك لديهن، وضعنا الحكم المتعلق بالصدق ضمن قائمة طويلة من الأحكام الواجب عليهم الادلاء بها، مثل الصداقة، والانبساط، والهيمنة، والغرابة، والهدوء وغيرها.

وعلى الرغم من وجود بعض الطالبات ممن لم يبرعن بالكذب، واللواتي اكتشفن بسهولة، فإن معظمهن ضلن الحكم غير المتشككين، وكانت أسوأ الأحكام للذين رأوا الوجه، أو سمعوا الكلمات فقط؛ فقد قيّموا طالبات التمريض أنهم أكثر صدقاً، في حين كنّ

في الحقيقة أكثر كذباً، ولم يكن أداء المجموعة المتشككة أفضل، فقد تمّ إخبار أفرادها بالتعليمات التي أعطيت لطالبات التمريض، وأُعلت المجموعة أنها ستحكم على أشخاص إما كاذبين أو صادقين – أي الصدق أو الخداع. في النتيجة، حصل عدد قليل على نسبة تفوق المصادفة في تحديد الطالبات المخادعات من الصادقات.

وكان الذين شاهدوا حركات الجسم هم الأفضل في إصدار الأحكام، وحتى هؤلاء كانت أحكامهم صحيحة بما نسبته 65%، في حين أنّ نسبة الطالع والمصادفة في الأحكام الصحيحة كانت 50%⁽³⁾. ونجح بعضهم بتحديد 85% من الكاذبين. كانت بعض الأحكام الدقيقة صادرة عن معالجين نفسيين ذوي خبرة وسمعة كونهم أطباء متمرسين، في حين كان بعضهم الآخر أشخاصاً فائقي الحساسية في مهن أخرى.*

ليس من الضروري أن يكون التضليل قوياً، أجاد الأشخاص الذين قيل لهم ما يدور في هذا الفصل، والفصل الذي يليه، الحكم على الطالبات الكاذبات، تماماً كإجادة المعالجين النفسيين من ذوي الخبرة، فمن الممكن تعلم قرائن الخداع، ويحصل مكتشف الأكاذيب على فرصة أفضل إذا اشتمل الخداع على العواطف، ولم يكن الكاذب مختلاً عقلياً، أو حاذقاً، أو كاذباً بالفطرة. في هذا الشأن، هناك ثلاثة أهداف، هي: كشف الأكثر كذباً، والخطأ في الحكم على الأكثر صدقاً، والأهم، معرفة الوقت الذي يكون فيه من غير الممكن القيام بأحد الهدفين السابقين.

الكلمات

من المُستغرب أن يُفصح كثير من الكاذبين من خلال كلماتهم وبسبب إهمالهم، لا أنهم لا يستطيعون إخفاء ما يقولون، أو أنهم حاولوا ذلك وفشلوا، بل ببساطة لأنهم أهملوا التلفيق بعناية، لقد ذكر رئيس تنفيذي لشركة بحوث أنّ زميلاً تقدم لوظيفة في الشركة

* لقد حاول كثير من علماء النفس تحديد السبب الذي يجعل الشخص حكماً جيداً أو سيئاً على الآخرين، ولكن لم يتم إحراز تقدم في ذلك. للاطلاع على البحوث المقدمة في ذلك انظر: Measuring the Ability to Recognize Facial Expressions of Emotion, in Emotion in the Human Face, ed. Paul Ekman (New York: Cambridge University Press, 1982).

باسمين مختلفين في السنة نفسها، ولدى سؤاله بأيّ الاسمين يرغب أن يُنادى به، استمر الرجل الذي دعا نفسه أولاً ليزلي دانتير، وتحول لاحقاً لاسم ليستر دينتر في المراوغة دون أن يخطئ قيد أنملة، فسّر تغييره لاسمه الأول لأنّ هذا الاسم بدا أنثوياً جداً، وغير اسمه الأخير لجعل نطقه أسهل، ولكن رسائل التوصية هي التي فضحته، لقد قدم ثلاث رسائل توصية، وقد أخطأ أصحاب العمل فيها بالخطأ الإملائي نفسه⁽⁴⁾.

حتى الكاذب الحذر قد يفضحه ما عرفه سيغموند فرويد بزلة اللسان، ففي كتابه (علم النفس في الحياة اليومية)، بيّن فرويد كيف أنّ الأخطاء في الحياة اليومية مثل زلات اللسان، ونسيان الأسماء المألوفة، والأخطاء في القراءة والكتابة لم تكن مصادفة، بل هي أحداث ذات معنى، وتكشف عن عقد نفسية داخلية. فالزلات معبرة، وقال عنها: هي شيء لم يرغب الشخص بقوله: وتصبح الزلات نمط خيانة ذاتية⁽⁵⁾. لم يكن فرويد مهتماً بالخداع، ولكن أحد الأمثلة التي استخدمها بيّن زلة لسان فضحت كذبة، ويصف المثال تجربة الدكتور بريل، وهو أحد أتباع فرويد الأوائل والمعروفين:

(في إحدى الليالي، خرجت بنزهة مع الدكتور فرينك، ناقشنا فيها أعمال جمعية التحليل النفسي في نيويورك. وعلى سبيل المصادفة، قابلنا زميلنا الدكتور والي الذي لم أره منذ سنوات عدّة، ولم أكن أعرف عن حياته الخاصة شيئاً، كنا مسرورين للقاء مجدداً، فدعوته لمرافقتنا إلى المقهى حيث جلسنا نتحدث لساعتين، وبدا أنه يعرف بعض التفاصيل عني؛ إذ سألتني بعد تبادل التحية المعتادة عن طفلي الصغير، وأعلمني أنه يسمع عني الأخبار بين حين وآخر من صديق مشترك، وكان مهتماً بعملتي بعد أن قرأ عنه في المجلة الطبية، أمّا سؤالني إياه عما إذا كان متزوجاً فقد أجاب بالنفي وأضاف: لم ينبغي لرجل مثلي أن يتزوج؟ وحين مغادرتنا المقهى، التفت نحوي قائلاً: أحب أن أعرف ما الذي ستفعله في حالة كالحالة التي سأقصها عليك. قال: كنت أعرف ممرضة مدّعي عليها ثانياً في دعوى طلاق، وقد ارتكبت الزنا في أثناء مدة رفع الدعوى.

قاضت الزوجة الزوج، واتهمت أنها مزوجة، فحصل على الطلاق. فقاطعته قائلاً: هل تعني أنها حصلت على الطلاق. فصحّ كلامه على الفور قائلاً: نعم، بالطبع حصلت على

الطلاق، وتابع الحديث عن كيف أنّ الممرضة تأثرت جداً بإجراءات الطلاق والفضيحة مما جعلها تشرب الخمر، وأصبحت عصبية جداً، وما إلى ذلك من سلوكيات، وطلب إليّ نصحه في كيفية التعامل معها.

وفور تصحيحى لخطئه، طلبت إليه تفسيراً لذلك، ولكنني حصلت على الجواب المفاجئ المعتاد: أليس من حقّ الشخص أن يزلّ لسانه؟ لقد كانت مجرد مصادفة ليس إلا، فأجيبته بوجود وجود سبب لكل خطأ في الكلام، ولأنّه لم يخبرني سابقاً أنه متزوج، فإنني أميل إلى افتراض أنه هو بطل القصة؛ لأنه في تلك الحالة يمكن تفسير زلة اللسان برغبته في أنه هو من حصل على الطلاق بدلاً من زوجته، كي لا يضطر إلى دفع نفقه لها تنفيذاً لقوانين الزواج الخاصة بالبلد، وكي يستطيع الزواج ثانية في ولاية نيويورك. لقد نفى بقوة حدسي، ولكن ردّة الفعل العاطفية المبالغ بها التي رافقت ذلك، والتي أظهر فيها علامات الامتعاض المتبوعة بضحكة قد زادت من ارتياحي، رجوته إخباري الصدق لمصلحة العلم، أجاب: إذا كنت تريدني أن أكذب فعليك أن تصدق أنني لم أكن يوماً متزوجاً. وعليه، يكون تفسيرك النفسي التحليلي غير صحيح، وأضاف: إنّ الذي ينتبه لكل صغيرة خطر بصورة إيجابية، ثم تذكر فجأة أنّ لديه موعداً آخر وتركنا.

كنتُ والدكتور فريـنك مقتنعين أنّ تفسير زلة لسانه كانت صحيحة، فقررت إثباتها أو دحضها من خلال إجراء مزيد من البحث. بعد بضعة أيام، زرت جاري، وهو صديق قديم للدكتور الذي استطاع إثبات تفسيري بكلّ دقة، لقد تمت إجراءات الطلاق قبل بضعة أسابيع، واتهمت الممرضة أنها افترت الفاحشة وهي ما تزال على ذمة زوجها⁽⁶⁾.

قال فرويد «إنّ كبت نيّة المتحدث في قول شيء ما شرط لا غنى عنه لحدوث زلة اللسان⁽⁷⁾». قد يكون الكبت متعمداً إذا كان المتحدث كاذباً، ولكن فرويد كان أكثر اهتماماً بالحالات التي لا يدرك المتحدث فيها ما قد كبته، أو حتى عندها قد لا يدرك المتحدث ذلك.

على مكتشف الكذب أن يكون حذراً، وعدم افتراض أنّ أيّ زلة لسان دليل على الكذب. يساعد السياق الذي تحدث فيه زلة اللسان على معرفة ما إذا كانت الزلّة تشي بكذبة أم لا، على مكتشف الكذب أيضاً أن يتجنب خطأ الحكم على شخص ما أنّه صادق بسبب عدم وقوعه بزلات لسان فقط؛ إذ لا تحتوي كثير من الأكاذيب عليها، لم يفسّر فرويد لماذا تقضح

الأكاذيب بعض الزلات في حين لا يفعل كثير منها ذلك، من المثير للتفكير أنّ الزلات تحدث عندما يريد الكاذب أن يُكتشف، وعندما يعاني ذنب الكذب، بالتأكيد شعر الدكتور بذب الخداع بشأن الكذب على زميله الموقر، ولكن الدراسات التي تفسّر فضح زلات اللسان لبعض الأكاذيب فقط أو حتى التخمين بذلك لم تُجرَ بعد.

التَهَجُّم طريقة ثالثة يفضح الكاذبون أنفسهم بها بالكلمات. يختلف التَهَجُّم عن زلة اللسان. حيث يكون لغو الحديث أكثر من كلمة أو اثنتين. إذ لا تنزل المعلومات بل تتدفق. ويندفع الكاذب بعواطفه، ولا يدرك ما حدث إلا بعد ظهور عواقب ما كشفه. ولو بقي الكاذب هادئاً، لما كشف عن معلومات تؤكد كذبه، وما يسبب إعطاء الكاذب للمعلومات هو ضغط العاطفة المرربك كالغضب، أو الرغبة، أو اليأس، أو الإحباط. قدّم توم بروكاو المضيف في برنامج «عرض اليوم» في قناة (NBC) التلّفازيّة وصفاً لمصدر رابع من قرائن الخداع، بقوله: إنّ معظم القرائن التي حصلت عليها من الأشخاص لفظية وليست بدنية.

فأنا لا أنظر إلى وجه الشخص باحثاً عن علامات تدلّ على كذبه، وما أسعى إليه هو الإجابات الملتوية أو المراوغات المتطورة⁽⁸⁾. يدعم قليل من الدراسات حدس بروكاو الذي وجد أنّ بعض الأشخاص يسهبون في حديثهم، ويدلون بإجابات غير مباشرة، ويقدمون معلومات أكثر مما طُلب إليهم، بالمقابل، أثبتت دراسات بحثية أخرى عكس ذلك تماماً؛ حيث إنّ معظم الأشخاص أذكيا جداً، ومراغون، وغير مباشري الإجابة*. ولربما غفل توم بروكاو عن هذا الصنف من الكاذبين. وتكمن المخاطرة الأسوأ في إساءة الحكم على

* من الصعب فهم ما يمكن استنتاجه من تناقضات بحوث الخداع السابقة، إذ إنّ التجارب نفسها ليست ذات مصداقية، فقد درست جميعها تقريباً طلاباً كذبوا بأمر تافهة بوجود مخاطرة بسيطة. أظهرت معظم التجارب في الكذب القليل من الأفكار عن نوع الكذبة التي تتم دراستها، وتكون الكذبة المدروسة مختارة لأنّ من السهل إعدادها في المختبر، لقد طُلب إلى الطلاب مثلاً النقاش المقنع عن عقوبة الإعدام أو الإجهاض مما يتعارض مع ما يعتقدون به، أو طُلب إليهم إبداء رأيهم في شخص تُعرض عليهم صورته، ثم طُلب إليهم الادعاء أنّ لديهم موقفاً معاكساً، لقد فشلت هذه التجارب عادة في افتراض علاقة الكاذب بالهدف، وفي كيفية تأثيرها بمدى صعوبة محاولة الكاذب للنجاح. في العادة، لا يتعارف الكاذب والمكذوب عليه، ولا يوجد هناك سبب يدعو للتفكير أن يلاقي أحدهم الآخر ثانية، وأحياناً لا يكون هناك مكذوب عليه فعلي. ولكن بدلاً من ذلك، قد يتحدث الكاذب بطريقة مضللة مع آلة. لمراجعة حديثة غير حاسمة بما فيه الكفاية لهذه التجارب (انظر: Miron Zuckerman, Bella M. DePaulo, and Robert Rosenthal, «Verbal and Nonverbal Communication of Deception,» in Advances

الشخص الصادق الذي يصدف أن يكون معقداً أو مراوغاً في حديثه، إذ يتحدث عدد قليل من الأشخاص بهذه الطريقة. وهذه بالنسبة إليهم ليست علامة على الكذب؛ بل الطريقة التي يتحدثون بها ليس إلا. إن السلوك الذي يعدّ دليلاً على الخداع قد يكون سلوكاً طبيعياً عند آخرين. سأسمي احتمالية إساءة الحكم على مثل هؤلاء الأشخاص مخاطرة بروكاو، يكون مكتشف الكذب عرضة لمخاطرة بروكاو، وعندما لا يعرف المشتبه به الذي يكون كاذباً. وسأناقش سبل تجنب مخاطرة بروكاو في الفصل السادس.

لم يتم الكشف عن أيّ مصادر تسرب أخرى وقرائن خداع في الكلمات حتى الآن من خلال البحث العلمي. وأشك في إيجاد كثير منها لاحقاً.

كما ذكرت سابقاً، من السهل على المخادع إخفاء الكلمات وتزويرها، على الرغم من وقوع الأخطاء، مثل أخطاء الإهمال، والزلات، والتّهجم، والإسهاب، أو الكلام غير المباشر.

الصوت

يشير الصوت إلى كل ما هو معني بالكلام ما عدا الكلمات، وتعدّ أكثر قرائن الخداع الصوتية شيوعاً الوقفات، التي قد تكون طويلة جداً ومتكررة، وقد يثير التردد في بداية منعطف الكلام الشكوك، خصوصاً إذا حدث التردد في أثناء الإجابة عن سؤال. وكذلك تفعل الوقفات القصيرة في أثناء سياق الحديث إذا ما حدثت بكثرة. قد تكون أخطاء الكلام أيضاً دليلاً على الخداع. وتشتمل الأخطاء على الكلمات مثل: آه، آه، آه، والتكرارات مثل: أنا، أنا، أنا، أعني، أنا حقاً. والكلمات الجزئية مثل: لقد أحببتها حق. قا.

تحدث قرائن الصوت اللفظية على الخداع، مثل أخطاء الكلام والوقفات لسببين مترابطين. قد لا تكون الكاذبة قد تدربت على كذبتها مسبقاً، وإذا لم تتوقع الكذب، أو كانت جاهزة لتكذب ولكنها لم تتوقع سؤالاً ما، فقد تتردد أو تقترف الأخطاء الكلامية، ولكن قد تحدث أخطاء الكلام أيضاً حتى عندما تكون الكذبة معدة تماماً. وقد يتسبب الخوف الشديد من الانكشاف بتعثر الكاذبة أو نسيانها الكذبة، قد يفاقم الخوف من انكشاف الأخطاء التي

يرتكبها الكاذب غير المستعد، وقد يجعل سماع الكاذبة لكذبتها ومدى سوئها أكثر خوفاً من الانكشاف، الأمر الذي يزيد وقفاتها وأخطاءها في الحديث.

يمكن الكشف عن الخداع من خلال نبرة الصوت أيضاً، ففي حين يعتقد معظمنا أنّ الصوت يشير إلى العاطفة التي يشعر بها الشخص، فإنّ العلماء الذين يدرسون الصوت غير متأكدين من ذلك، لقد اكتشفوا عدداً من الطرق لتمييز الأصوات السارة من غير السارة، ولكنهم لا يعرفون حتى الآن ما إذا كانت نبرة الصوت مختلفة بالنسبة إلى المشاعر التالية غير السارة: الغضب، أو الخوف، أو اليأس، أو الاشمئزاز، أو الازدراء. أعتقد أنّ هذه الفروق ستوجد بمرور الوقت. ولكن في الوقت الراهن، سأشرح ما هو معروف، وما يبدو واعداً في قادم الأيام.

إنّ أفضل ما تم توثيقه على علامة العاطفة الصوتية هي النبرة. إذ تصبح النبرة مرتفعة لدى قرابة 70% من الأشخاص الذين خضعوا للدراسة عندما شعروا بالضيق، ربما يكون هذا صحيحاً عندما يكون الضيق بسبب شعور غضب أو خوف. وهناك دليل على أنّ النبرة تنخفض بشعور الحزن أو الأسف، ولكن ذلك ليس أكيداً تماماً، لم يصل العلماء إلى نتيجة تفيد بتغيير النبرة عند الإثارة أو الضيق أو الاشمئزاز أو الاحتقار. إنّ علامات العاطفة الأخرى (ليست مثبتة ولكنها واعدة) كمشاعر الغضب والخوف يستدرجان صوتاً سريعاً ومرتفعاً، في حين تستدرج مشاعر الحزن اللفظ اللين البطيء، قد تحدث إنجازات في قياس الجوانب الأخرى؛ كجودة الصوت، وتردده، وطيف الطاقة في نطاقات تردد مختلفة، وتغيرات مرتبطة بالتنفس⁽⁹⁾.

إنّ تغيرات الصوت التي تتجهها العواطف ليست سهلة الإخفاء؛ إذا كان الكذب مرتبطاً أساساً بالعواطف المحسوسة لحظة الكذب، فعندها تكون فرصة التسرب جيدة، وإذا كان هدف الكذبة إخفاء الخوف أو الغضب، فيجب أن يكون الصوت أعلى وأقوى، ومعدل الكلام أسرع، إنّ النمط المقابل لتغيرات الصوت هو القادر فقط على تسريب مشاعر الحزن الذي يحاول المخادع إخفاءها.

يمكن لتردد الصوت أن يفضح الأكاذيب التي لم تبذل جهوداً لإخفاء العاطفة إذا أصبحت هذه العاطفة معنية للفرد، وينتج الخوف من الانكشاف صوتاً يشبه صوت الخوف. وقد يبدو أن ذنب الخداع ينتج التغييرات نفسها في تردد الصوت كالحزن، ولكن هذا مجرد تخمين، لم يتضح ما إذا أمكن فصل لذة الخداع وقياسها في الصوت، أعتقد أن الإثارة من أي نوع لها توقيع صوتي معين، ولكن هذا لم يثبت بعد.

لقد كانت تجربة طالبات التمريض أول ما وثق تغيير النبيرة في الخداع (10) فقد وجدنا أن النبيرة ترتفع في أثناء الخداع، ونعتقد حدوث ذلك؛ لأن الطالبات شعرن بالخوف، وكان هناك سببان لشعورهن بهذه العاطفة؛ الأول: أننا فعلنا ما في وسعنا لجعل المخاطرة عالية لكي يشعرن بالخوف الشديد من الانكشاف. أما الآخر، فقد ولدت رؤية المشاهد الجراحية الدموية شعور الخوف لدى بعضهن، وما كنا لنجد هذه النتائج إذا تم الحد من مصادر الخوف، وذلك في حالة كان أفراد عينة الدراسة غير مباينين ولا معنيين في أن يكذبوا للفوز أو القبول بمهنة معينة، ولكن التجربة عند الطالبات كانت تعني لهن الكثير لقبولهن في مهنة التمريض. إذن، بوجود قليل من الأخطار، ربما ليس هناك خوف كافٍ ليحدث تغيير في نبيرة الصوت. كذلك، لنفترض أننا عرضنا على الطلاب فيلماً عن طفل يحتضر، المرجح في هذه الحالة هو الشعور بالحزن لا الخوف، وفي حين أدى الخوف من الانكشاف إلى رفع النبيرة، فإن إخفاء ردة الفعل بالعاطفة الحزينة تخفضها.

لا تُعد النبيرة المرتفعة علامة على الخداع، بل قد تكون علامة على خوف أو غضب، وربما إثارة أيضاً، وقد فضحت علامة هذه العاطفة إدعاء الطالبة أنها كانت قانعة بشعور السعادة كإجابة للفيلم الذي يعرض الزهور، هناك خطر في تفسير أي علامة من علامات العاطفة الصوتية على أنها دليل خداع، فالممرضة الصادقة التي تخشى عدم تصديقها قد تنتج النبيرة المرتفعة نفسها التي تظهرها الكاذبة من جرّاء خوفها من انكشاف كذبتها، وتكمن المشكلة التي تواجه مكتشف الكذب في أن الأشخاص البريئين أيضاً تتم استشارتهم عاطفياً أحياناً وليس الكاذبين فقط، وفي مناقشتي لهذه المشكلة لتفسير مكتشف الكذب القرائن الممكنة الأخرى على الخداع سأدعوها (خطأ أو ثلث)، وسناقش في الفصل السادس هذا الخطأ بالتفصيل، وتفسير كيف يمكن لمكتشف الكذب التأكد من عدم الوقوع في هذا

الخطأ، وهو مع الأسف أمر ليس من السهل تجنبه. إنَّ تغييرات الصوت التي يمكن أن تفضح الخداع عرضة أيضاً لمخاطرة بروكاو(الفروق الفردية في السلوك العاطفي) المذكورة سابقاً فيما يتعلق بالتوقفات وأخطاء الكلام.

مثلما أنَّ العلامة الصوتية لعاطفة ما، مثل النبرة، قد لا تشير إلى وجود كذبة، كذلك غياب أيّ علامة صوتية للعاطفة قد لا يثبت بالضرورة الصدق، تتوقف مصداقية شهادة جون دين في أثناء عرض جلسات مجلس الشيوخ عن ووترغيت في التلّافز الوطني جزئياً - على كيفية تفسير غياب العاطفة في صوته، النغمة المنبسطة في الصوت. وقد اعترف جون دين، مستشار الرئيس نيكسون، بعد اثني عشر شهراً من اختراق مقر اللجنة الديمقراطية الوطنية ووترغيت. وعندما شهد نيكسون أخيراً أنه قبل شهر حاول أحد مساعديه التستر على فضيحة ووترغيت، فإنَّ نيكسون أنكر معرفته بذلك.

وبكلمات القاضي الفيدرالي جون سيريكاً: لقد حُشر الشخص التافه في التستر على الفضيحة بشهادة أحدهم ضد الآخر على الأغلب، وما بقي لتحديده هو الذنب الحقيقي أو براءة الأشخاص في الإدارة. وكانت شهادة دين في صميم ذلك السؤال.... في شهادته أمام مجلس الشيوخ، زعم دين أنه أبلغ نيكسون ثانية أنَّ إسكات المتهمين بالسطو على ووترغيت يحتاج إلى مليون دولار، وأجاب نيكسون ثانية أن تحصيل النقود ممكن، دون إبداء صدمة، ولا غضب، ولا ممانعة، لقد كان هذا اتهام دين الأكثر إثارة، فقد كان يقول إن نيكسون نفسه أثبت عملية الدفع للمتهمين⁽¹¹⁾.

دحض البيت الأبيض في اليوم اللاحق، ادعاءات دين، وفي مذكرات نيكسون التي نشرها بعد خمس سنوات قال: لقد تابعت شهادات جون دين في فضيحة ووترغيت ورأيت أنها خليط من الصدق والكذب، وخليط بارع من الحقيقة والكذب، ومن سوء الفهم الصادق الممكن واختلالات الإدراك الواضحة، في محاولة للتخفيف من دوره الشخصي، لقد نقل معرفته الكلية الخاصة للتستر وقلقه الشخصي على أفعال الآخرين وأقوالهم⁽¹²⁾. وفي الوقت الذي كان الهجوم فيه على دين أشدّ ما يكون، تسربت قصص من البيت الأبيض، مع الاحترام، للصحافة تدعي أن دين كان يكذب ويهاجم الرئيس؛ لأنه كان خائفاً من التحرش الجنسي إذا ما ذهب إلى السجن.

لقد كانت كلمة دين ضد كلمة نيكسون، وعرف عدد قليل من الأشخاص بالتأكد أيهما كان يقول الحقيقة، وقال القاضي سيريكاً واصفاً شكوكه: لا بدّ من القول أنني كنت متشككاً بمزاعم دين، فقد اتضح أنه كان شخصية رئيسة في عملية التستر... وكان لديه الكثير ليخسر... وبداء لي في ذلك الوقت أن دين قد يكون مهتماً أكثر بحماية نفسه من خلال توريث الرئيس بدلاً من قول الصدق⁽¹³⁾.

يستمر سيريكاً في وصف إعجابه بصوت دين: بعد أيام من إلقاء دين بإفادته، أمطرتة اللجنة بوابل من الأسئلة العدائية، ولكنه تمسك بإفادته، ولم يبدِ استياءً بأيّ حال من الأحوال، وجعلت نبرة صوته السلسلة غير العاطفية مصدقة⁽¹⁴⁾. يرى بعضهم أن المتحدث بنبرة صوت بسيطة، وأنه متمكن من نفسه، يشير إلى وجود ما هو مخفي، وستتطلب إساءة تفسير نبرة صوت دين البسيطة معرفة ما إذا كانت هذه النبرة في صوته سمة من سماته وليست دليلاً على شيء آخر. إن الإخفاق في إظهار علامة على العاطفة في الصوت ليست بالضرورة دليل على الصدق. إذ لا يبدي بعض الأشخاص مشاعرهم أبداً، أو على الأقل ليس بأصواتهم. وحتى أولئك العاطفيين، قد لا تكون عاطفتهم بسبب كذبة ما. لقد كان القاضي سيريكاً عرضة لخطر بروكاو، تذكر أن المذيع توم بروكاو ذكر أنه يفسر الإسهاب في الحديث على أنه علامة على الكذب، وتذكر اعتراضه على مصداقية هذا التفسير في أن الإسهاب سمة خاصة عند بعض الأفراد. والآن، يمكن أن يقوم القاضي سيريكاً بالخطأ العكسي، وهو الحكم على شخص أنه صادق لأنه لم يظهر دليلاً على الخداع، دون أن يلاحظ أن بعض الأشخاص قد لا يفعلون ذلك.

ينشأ كل من الخطأ بسبب حقيقة تباين الأشخاص في تعابيرهم العاطفية. ويكون مكتشف الكذب معرضاً للخطأ إلا إذا كان يعرف ماهية سلوك المشتبه به العاطفي. ولن تكون هناك مخاطرة بروكاو إذا لم يكن هناك قرائن سلوكية ذات مصداقية على الخداع.

عندها لن يكون لدى مكتشف الكذب شيء يتبعه، ولن تكون هناك مخاطرة بروكاو إذا كانت القرائن السلوكية ذات مصداقية تامة للجميع بدلاً من بعضهم. ليس هناك دليل خداع ذو مصداقية للأشخاص جميعهم، ولكنها منفردة ومجموعة قد تساعد مكتشف الكذب على الحكم على معظم الأشخاص، وسيعرف كل من زوجة دين وأصدقائه وزملائه في العمل فيما

إذا كان دين مثل باقي الأشخاص في إظهار العاطفة في صوته، أم أنه قادر في العادة على التحكم في صوته، لقد كان القاضي سيريكاً عرضة لمخاطرة بروكاو لعدم معرفته السابقة بدين.

تقدم شهادة دين التي كانت على وتيرة واحدة من نبرة الصوت درساً آخر، إذ على مكتشف الكذب التفكير في إمكانية أن يكون المشتبه به موهوباً في الأداء بصورة غير عادية، ومتمكناً من إخفاء سلوكه. يصبح حينها من غير الممكن معرفة ما إذا كان ذلك الشخص كاذباً أم لا. استناداً إلى تفسيره، كان جون دين موهوباً في الأداء، وبدا أنه يعرف مسبقاً كيف يفسر القاضي سيريكاً والآخرين سلوكه. وأفاد بالأفكار التالية في أثناء تخطيطه كيفية تصرفه عند الإدلاء بالشهادة، سيكون من السهل إخفاء لمسة عاطفية أو الظهور بمظهر المنقلب عن الشهادة؛ قررت أن أكون متوازناً غير مرتبك، ودون عاطفة، وهادئاً قدر الإمكان، وأجيب عن الأسئلة بالطريقة نفسها؛ حيث يميل الأشخاص إلى الاعتقاد أن الصادق هادئ⁽¹⁵⁾. وبعد الانتهاء من الشهادة، وبداية الاستجواب، قال دين: لقد أصبحت عاطفياً جداً، إنني أختنق، وأشعر بالوحدة، وعاجز بوجه سلطة الرئيس، فتنفست عميقاً لجعل ذلك يبدو كما لو أنني أفكر، وقد كنت أناضل للسيطرة.... وصممت على عدم إظهار عواطفِي هذه؛ لأنَّ الصحافة ستفسر ذلك على أنه دليل ضعف إنساني عندي⁽¹⁶⁾.

ولكن حقيقة أن أداء دين متفق عليه، وأنه كان موهوباً جداً في السيطرة على سلوكه، لا يعني بالضرورة أنه كان كاذباً، وكان ينبغي أن يكون الآخرون حذرين بتفسير سلوكه. في الواقع، تشير القرائن اللاحقة أن شهادة دين كانت صادقة بنسبة كبيرة، وأن نيكسون الذي كان على عكس دين ليس موهوباً في الأداء، وكان كاذباً.

قبل الانتهاء من مناقشة موضوع الصوت، وآخر موضوع سنناقشه هو الادعاء بوجود آلات تستطيع كشف الأكاذيب آلياً وبدقة من خلال الصوت، هذه الأجهزة هي: جهاز مقيم الضغوط النفسية (PSE)، وجهاز محلل الصوت مارك الثاني، وجهاز محلل التوتر الصوتي، وجهاز محلل الضغوط النفسية (PSA)، وجهاز الهاغوث، وجهاز مراقبة توتر الصوت. ويدعي مصنعو هذه الأجهزة أنها تستطيع اكتشاف الكذب من الصوت، وحتى عبر الهاتف. وكما تشير أسماؤها، فهي تكتشف التوتر لا الكذب. لا توجد هناك علامة صوتية على الكذب

بحد ذاته، والعلامة فقط هي للعواطف السلبية. لم يكن مصنعو هذه الأدوات غالبية الثمن صريحين جداً في تحذير المستخدم بشأن الكاذبين الذين يشعرون بالضييق. لقد وجد العلماء المتخصصون في دراسة الصوت وأولئك المتخصصون في استخدام التقنيات الأخرى لكشف الكذب أنّ هذه الآلات لا تقوم بما يفوق المصادفة في الكشف عن الكذب، وهي ليست جيدة بالمهمة الأكثر سهولة في الكشف في ما إذا كان الشخص متضايقاً أم لا⁽¹⁷⁾. لكن يبدو أنّ هذا لم يؤثر سلباً في تسويق هذه الأجهزة وبيعها. إنّ إمكانية الطريقة المصممة على النجاح غير المزعجة في كشف الأكاذيب مثيرة جداً للاهتمام.

الجسم

قبل أكثر من خمس وعشرين سنة، وفي تجربة جرت في أثناء دراستي، عرفت عن طريقة سرّبت فيها حركات الجسم العاطفة المخفية، لم يكن هناك دليل علمي كافٍ عندها عمّا إذا كانت حركات الجسم تعكس العاطفة أو الشخصية بدقة، أمّا الأطباء النفسيون فقد اعتقد بعضهم بذلك، لكن مزاعمهم رُفِضت بوصفها حكايات لا أساس لها عن طريق السلوكيين الذين سيطروا على علم النفس الأكاديمي في ذلك الوقت، من عام 1914م إلى 1954م، فشلت كثير من الدراسات في إيجاد دعم لافتراض أنّ السلوك غير اللفظي يقدم معلومات دقيقة عن العاطفة والشخصية.

يفخر علم النفس الأكاديميّ بكيفية رفض التجارب العلمية اعتقاد الشخص العادي معرفة العاطفة أو الشخصية من الوجه أو الجسم، وعدّ ذلك نوعاً من الخرافة. ويرى أنّ بعض علماء الاجتماع أو المعالجين الذين تابعوا الكتابة عن حركات الجسم مثل الذين اهتموا بالإدراك ما فوق الحسي وفن الخط - ساذجون، أو ناقصو عقل، أو مشعوذون.

لم أصدق أنّ الأمر كذلك، وبمشاهدة حركات الجسم في أثناء جلسات العلاج الجماعي اقتنعت أنّ بإمكانني معرفة الشخص المتضايق وسبب ضيقه، وبكامل تفاؤل طالب الجامعة في السنة الأولى، أخذت على عاتقي مهمة إقناع علماء النفس الأكاديميين تغيير وجهة نظرهم تجاه السلوك غير اللفظي، فأعددت تجربة لإثبات تغيير حركات الجسم عندما يكون الشخص متوتراً، كان مصدر التوتر أستاذي في السنة الأولى، وقد وافق على أن يتبع خطة وضعتها لاستجواب

زملائي الطلبة بتخصص علم النفس بشأن الأمور التي أعرف أننا جميعاً عرضة لها، وسجلت بألة تصوير مخفية سلوك زملائي عندما سألتهم الأستاذ عما يخططون له بعد الانتهاء من التدريب، بعد السؤال، هاجم الأستاذ الطلاب الذين ذكروا توجههم إلى البحث العلمي، ونعتهم بالاختباء في المختبر، والتهرب من مسؤولية مساعدة الذين يعانون مرضاً عقلياً. انتقد الطلاب أيضاً الذين أوضحوا نيتهم مساعدة المرضى النفسيين بممارسة العلاج النفسي، متهماً إياهم في أنهم يسعون وراء تحصيل المال فقط، والتهرب من المسؤولية في القيام بالبحث المطلوب لإيجاد علاجات المرض العقلي. بعدئذٍ، سألت الأستاذ الطلاب عما إذا أصيبوا في الماضي بمرض تطلب علاجاً نفسياً، فسأل الطلاب الذين أجابوا بنعم: كيف ستساعدون الآخرين إذا كنتم أنتم مرضى؟ وهاجم الطلاب الذين أجابوا بالنفي أنهم يحاولون مساعدة الآخرين دون معرفتهم لأنفسهم أولاً، لم يكن هناك رابح منهم في أي حال. ولجعل الأمور أسوأ، طلبت إلى الأستاذ أن يقاطعهم، ولا يدع أحدهم يكمل إجابته على الانتقادات اللاذعة الموجهة له.

تطوع الطلاب لهذه التجربة البائسة لمساعدتي، وقد علموا أن المقابلة بحثية، وأن التجربة ستطوي على التوتّر. ولكن ذلك لم يجعلها أسهل بالنسبة إليهم عندما بدأت.

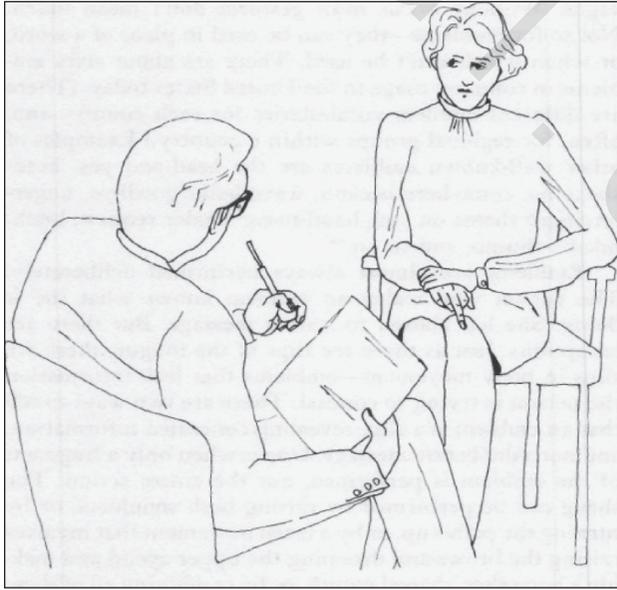
كان الأستاذ الذي يتصرف غير معقول خارج نطاق التجربة يتمتع بسلطة هائلة على الطلاب، وقد كانت تقييماته حاسمة لتخرجهم، إضافة إلى أن توصياته ستحدّد نوع العمل الذي قد يحصلون عليه لاحقاً، في غضون بضعة دقائق، ارتبك الطلاب، ولعدم تمكنهم من المغادرة أو الدفاع عن أنفسهم تأججوا بغضب مكبوت، ومالوا إلى الصمت، أو التمتمة بأهات تشي بغضبهم. وقبل أن تنقضي خمس دقائق طلبت إلى الأستاذ إنهاء بؤس هؤلاء الطلاب، من خلال شرح ما كان يفعله، ولماذا قام بذلك، مادحاً الطلاب لتحملهم الضغط جيداً.

من خلال مرآة صورت بألة تصوير، راقبت حركات الجسم بصورة مستمرة، فلم أصدق ما رأيته عينا في المقابلة الأولى؛ بعد الهجوم الثالث، كانت طالبة تومئ بالأصبع الأوسط للأستاذ، وقد استمرت بتلك الحركة دقيقة كاملة، ومع ذلك لم يبدُ عليها الغضب. تصرف الأستاذ كما أنه لم يرها، فهرعتُ إلى مكان المقابلة بعد انتهائها، ولكن كلاهما ادعى أنني ألق ذلك. لقد اعترفت الطالبة بغضبها، ولكنها أنكرت التعبير عنه، واتفق الأستاذ معها، وأني قد تخيلت ذلك؛ لأنه كما ذكر لا يغفل عن أي إيماءة يمثل هذا الفحش، وعندما حمّض

الفيلم كان الدليل موجوداً، ولم تكن إيماة الأصبع التي ظهرت تعبّر عن مشاعر غير واعية، فقد عرفت الطالبة أنها قامت بها، ولكن التعبير عن هذه العاطفة لم يكن واعياً، فلم تعرف الطالبة أنها أماءت بفحش للأستاذ. لقد تسربت العاطفة التي كانت تتعمد إخفاءها.

بعد مضيّ خمسين سنة، شاهدت نوع التسرب غير اللفظي نفسه؛ إيماة متسرّبة أخرى، في التجربة التي حاولت طالبات التمريض فيها إخفاء ردود أفعالهن تجاه المشاهد الجراحية الدموية. ولم تكن إيماة الأصبع هي المتسرّبة هذه المرة، بل رفع الكتفين إلى الأعلى. وقامت الطالبات بالكذب الواحدة تلو الأخرى، فقد رفعن أكتافهن إلى الأعلى لدى طرح الشخص الذي يقوم بالمقابلة سؤال: هل ترغبين برؤية مزيد من مقاطع الفيلم؟ أو: هل يمكنك عرض هذا الفيلم على طفل صغير؟

إن رفع الكتفين إلى الأعلى، ورفع الأصبع بفحش، مثالان على حركات تسمى رموزاً لتمييزها عن باقي الإيماات التي يظهرها الأشخاص. إنّ للرموز معنى دقيقاً جداً معروفاً لأيّ كان في المجموعة الثقافية الواحدة؛ فالجميع يعرف معنى رفع الأصبع لأحدهم بفحش، وأنّ هزة الكتفين إلى الأعلى تعني: لا أعرف. أو: أنا عاجز. أو: ما الأهمية؟ ولا تمتلك معظم الإيماات الأخرى مثل هذا التعريف الدقيق، فضلاً عن أنّ معناها مبهم.



الشكل 1

دون كلمات، لا تعني معظم الإيماءات شيئاً، والأمر ليس كذلك بالنسبة إلى الرموز؛ إذ يمكن استخدامها مقام الكلمة، أو عندما لا يمكن استخدام الكلمات. هناك قرابة ستين رمزاً للاستخدام العام في الولايات المتحدة اليوم، وهناك مفردات رموز مختلفة لكل بلد وللجماعات الإقليمية في أغلب الأحيان داخل البلد الواحد، والأمثلة على الرموز الأخرى المعروفة هي إيماءة الرأس بنعم، وتحريك الرأس من اليمين إلى اليسار للدلالة على الإنكار، أو من أعلى إلى أسفل إشارة إلى تعال إلى هنا، والتلويح بأهلاً ومع السلامة، وفرك السبابة اليمنى باليسرى للإشارة إلى فعل مشين، واليد على الأذن طلباً لرفع الصوت، ورفع الإبهام لإيقاف سيارة... إلخ⁽¹⁸⁾.

تؤدّي الرموز دائماً عن قصد، ويعرف المستقبل ما تُشير إليه هذه الرموز تماماً، والرسالة التي تريد إيصالها. ولكن هناك استثناءات. ومثلما أنّ هناك زلات لسان، هناك زلات في حركات الجسم أيضاً، وهي الرموز التي تسرب معلومات يحاول الشخص إخفاءها. توجد طريقتان لمعرفة أنّ الرمز زلة تشي بمعلومة مخفية وليست رسالة عن قصد: إحداها في أداء جزء من الرمز وليس حركة الرمز كاملة؛ يمكن أداء هزة الكتف برفع الكتفين، أو من خلال رفع راحتي اليد إلى الأعلى، أو رفع الحاجبين، أو إرخاء الجفن العلوي، أو تدوير الفم ليصبح على صورة حذوة حصان، أو من خلال دمج هذه الحركات جميعها، وأحياناً إمالة الرأس نحو الجانب قليلاً، عندما يكون الرمز تسريباً يظهر عنصر واحد فقط، وحتى أنه يكون غير مكتمل؛ فقد ترفع كتف واحدة فقط، وليس لارتفاع عال، أو قد ترتفع الشفة السفلية قليلاً فقط، أو قد تدور راحتا اليد بعض الشيء: لا ينطوي رمز الأصبع على ترتيب معين بين الأصابع الخمسة، ولكن بدفع اليد إلى الأمام والأعلى بتكرار، ولما كان رمز الأصبع غير مقصود، إلاّ أنّه كان دلالة على غضب الطالبة الحانق.

والطريقة الأخرى لكون الرموز زلة لا حركة مقصودة تكمن في أدائها على خلاف وضع التقديم، تؤدّي معظم الرموز أمام الشخص تماماً بين منطقتي الخصر والرقبة، ولا يمكن أن يؤدي في موقف العرض. في مقابلة التوتر، عندما رفعت الطالبة أصبعها للمدرس، لم ترفع الطالبة أصبعها في الفضاء، ولكنها كانت تضع يدها بارتياح على ركبته، وهذا تماماً خارج منطقة العرض، وفي تجربة طالبات التمريض، كانت هزة الكتف التي سرّبت مشاعرهن

المعنية بالعجز، وعدم القدرة على إخفاء المشاعر حركات متناوبة بسيطة بوضع اليدين بعضهما على بعض، مع استمرار بقائهما في الحوض. لو كانت العلامة الخاصة غير مجزأة، وظهرت في موقف العرض، فسيذكر الكاذب ما يحدث وسيشعر بحدوثها. بالطبع، تجعل هذه الخصائص التي تميز العلامة الخاصة المتسرّبة، أجزاء العلامة الخاصة واندفاعها في موقف العرض، أمر تمييزها صعباً للآخرين. فقد يظهر الكاذب تسريباً لهذه العلامات الخاصة مرة بعد مرة، وفي العادة لا يلاحظها الكاذب ولا المتلقّي.

ليس شرطاً أن يقوم كل كاذب بزلة علامة خاصة. فلا توجد علامات مؤكدة على الخداع. هناك عدد قليل من البحوث التي تقدر عدد مرات حدوث زلات العلامات الخاصة عندما يكذب الأشخاص. لقد أظهر اثنان من أصل خمسة من الطلاب الذين تعرضوا للأستاذ الفظّ زلة بعلامة خاصة، وأظهرت أكثر من نصف طالبات التمريض زلة بعلامة خاصة عندما كنّ يكذبن. لا أعرف سبب قيام بعض الأشخاص بهذا التسريب ولا يقوم به الجميع.*

في حين لا يبدي كل كاذب زلة علامة خاصة، فإنّها عند حدوثها تكون ذات مصداقية تماماً، إنّ زلة العلامة الخاصة علامة أصلية لرسالة لا يرغب الشخص بكشفها.

بالإضافة إلى أنّ تفسيرها أقلّ عرضة للهجوم من باقي علامات الخداع، سواء مخاطرة بروكاو كانت أو خطأ أو ثلثو؛ فقد يتحدث بعض الأشخاص دائماً بأسهاب، ولكن بعضهم فقط يقع في زلات العلامات الخاصة بانتظام، وقد تدل أخطاء الكلام على الضغط بأنواعه المتعددة، وليس بالضرورة مشيراً إلى الكذب. ولأنّ العلامة الخاصة لها رسالة محددة، مثل الكلمات، فإنّ زلات العلامات الخاصة لا تكون غامضة جداً، فإذا أراد الشخص تسريب رسالة «تبا لك» أو «أنا مجنون» أو «لا أقصد ذلك» أو «هناك» والتي يمكن إظهارها بعلامة خاصة، فلن تكون هناك مشكلة في تفسير المقصود.

* لسوء الطالع، لم يقم أيّ من الباحثين الآخرين الذين درسوا الخداع بالبحث لمعرفة مدى إمكانية تكرار ما وجدناه بشأن زلات العلامات الخاصة، ولكنني متفائل أنهم سيفعلون ذلك؛ لأنهم وجدوا خلال خمس وعشرين سنة تسربات لزلات العلامات الخاصة مرتين.

يعتمد شكل زلة العلامة الخاصة في أثناء الكذبة، وماهية الرسالة المتسرّبة، على ما يتم إخفاؤه، ففي تجربة الأستاذ الفظّ، كان الطلاب يخفون الغضب والحنق، لذا كانت زلات العلامات الخاصة بالأصبع وقبضة اليد هي الموجودة، وفي تجربة الفيلم الجراحي التدريبي، لم تشعر طالبات التمريض بالغضب، بل شعر كثير منهنّ بعدم قدرتهن على إخفاء مشاعرهن بالصورة المناسبة، وكانت هزة الكتف، التي تعني العجز، هي زلة العلامة الخاصة، يجب عدم تعليم أيّ من صور العلامات الخاصة؛ فكلّ فرد يتعلم صور العلامات الخاصة في ثقافته، ولكن ما يهم تعليمه هو أنّ هذه العلامات الخاصة قد تحدث على صورة زلات. وما لم يكن مكتشف الكذب منتبهاً لهذه الاحتمالية فقد لا يكتشف زلة العلامة الخاصة، ولا ينتبه لها؛ لأنها مجزوءة، وغير مرئية.

تُعدّ التوضيحات نمطاً آخر من حركات الجسم التي يمكنها توفير أدلة خداع، وكثيراً ما يُخلط بين التوضيحات والعلامات الخاصة، ولكن لا بد من التمييز بينهما؛ لأنّ هذين النوعين من حركات الجسم قد تغير بطرق معاكسة عندما يكذب أحدهم. ففي الوقت الذي تزداد فيه زلات العلامات الخاصة تتناقص التوضيحات. تسمى التوضيحات بهذا الاسم لأنها توضح الحديث كما لو أنّ الشخص يتحدث بها، وهناك طرق عدّة للقيام بذلك:

يمكن التركيز على كلمة أو عبارة، مثل تغيير اللهجة، أو وضع خطّ أسفلها، فضلاً على أنه يمكن تتبع تأثير تدفق الكلام كما لو كان المتحدث يتحكّم في حديثه؛ وتستطيع اليدين رسم صورة في الفضاء، أو إبداء حركة تكرر، أو أن تضخم ما يقال. واليدين هما ما يوضح الحديث. وعلى الرغم من تأكيد حركات الحواجب والجفن العلوي للتوضيحات، فإنّ الجسم بأكمله أو الجذع العلوي يستطيع فعل ذلك أيضاً.

تفاوتت المواقف الاجتماعية تجاه ملكية التوضيحات عبر القرون القليلة الماضية؛ فقد كانت متداولة في الطبقة الراقية من المجتمع في وقت ما، في حين كان هناك أوقات عدّت علامات غير لائقة أدبياً. وقد صورت كتب الخطابة التوضيحات المطلوبة للخطابة العامة الناجحة.

لم تُجرِ الدراسة العلمية الرائدة في التوضيحات للكشف عن قرائن الخداع، ولكن للطنن في ادعاءات علماء الاجتماع النازيين. تساعد نتائج تلك الدراسة مكتشف الكذب على تجنب الأخطاء التي سببها عدم معرفة الفروق الوطنية في التوضيحات، ظهر في الثلاثينيات كثير من المقالات تدعي أنّ التوضيحات وراثية، وأنّ الأجناس الأدنى مثل اليهود أو الفجر، قاموا بكثير من التوضيحات الكبيرة الشاملة، مقارنة بالأجناس المتفوقة من الآريين الأقل استعمالاً للإيماء، ولم يرد ذكر للتوضيحات الكبيرة التي أظهرها حليف ألمانيا الإيطالي. ديفيد إيفرون⁽¹⁹⁾؛ يهودي أرجنتيني، درس في جامعة كولومبيا، مع الأنثروبولوجي فرانز بواس توضيحات الأشخاص الذين يعيشون في الجانب الشرقي السفلي من مدينة نيويورك، وقد وجد أنّ المهاجرين من صقلية استخدموا توضيحات رسمت صورة أو أظهروا حركة، في حين استخدم اليهود المهاجرون من لتوانيا توضيحات تؤكد أو تتبع تدفق الأفكار، لم يختلف أبناؤهم المولودون في الولايات المتحدة، وارتادوا مدارس بها طلاب من الخلفيات الثقافية جميعها – بعضهم عن بعض في استخدام التوضيحات.

استعمل أطفال الوالدين الذين قدم ذووهم من صقلية توضيحات مشابهة لتلك المستخدمة لدى أطفال أبناء يهود لتوانيا. أثبت إيفرون أنّ نمط التوضيحات مكتسب وليس موروثاً، يستعمل الأشخاص من الثقافات المختلفة أنواعاً مختلفة من التوضيحات، ولكن بعضهم يستعمل التوضيحات بصورة قليلة، في حين يستعملها آخرون بكثرة، وحتى في الثقافة الواحدة، يختلف الأشخاص في عدد التوضيحات التي يبدونها عادة*. إذن، ليس عدد التوضيحات أو نوعها هو ما يفضح الكذبة، وإنما تأتي قرينة الخداع من ملاحظة تناقص عدد التوضيحات الظاهرة عندما يستخدم الشخص توضيحات أقل من المعتاد، إذ نحتاج إلى المزيد من الشرح لتوضيح متى يستعمل الأشخاص التوضيحات لتجنب إساءة تفسير إظهار الشخص تناقصاً في إظهارها.

* تدرب العائلات المهاجرة من مختلف الثقافات التي تستخدم التوضيحات في العادة أبناءها على عدم الحديث بأيديهم، ويُحذّر الأطفال من أنهم إن فعلوا ذلك، فسوف يبدون أنهم جاؤوا من بلد قديم، ويجعلهم عدم التوضيح يشبهون قاطني أوروبا الشمالية، وهي سلالة أمريكية قديمة.

لنفكر أولاً في سبب استعمال الأشخاص التوضيحات، حيث تُستعمل لتفسير الأفكار التي يصعب التعبير عنها بالكلمات، وقد وجدنا أنّ الأشخاص كانوا أكثر عرضة للتوضيح عندما طلب إليهم تعريف التعرج مقارنة بالكرسي، علاوة على أنّ هنالك إمكانية استعمال التوضيح عند شرح كيفية الوصول إلى مكتب البريد مقارنة بشرح خياراتهم المهنية، تستخدم التوضيحات أيضاً عندما لا يستطيع شخص إيجاد كلمة ما، حيث يبدو أنّ فرقة الأصابع أو التطلع إلى الفضاء يساعده على إيجاد الكلمة كما لو أنها تطوف فوقه، في حين تلتقطها الحركة التوضيحية. على الأقل، تعرّف مثل هذه التوضيحات الباحثة عن الكلمة الشخص الآخر أنّ البحث جارٍ، وأنّ المتكلم لم ينفِ حديثه بعد. قد يكون للتوضيحات وظيفة تلقين ذاتي، فهي تساعد الأشخاص على وضع الكلمات معاً في حديث متماسك إلى حدّ معقول، إضافة إلى أنّ هذه التوضيحات تزيد من الاندماج مع ما يقال، ونلاحظ أنّ الأشخاص يميلون إلى التوضيح أكثر من المعتاد عندما يكونون غاضبين، أو خائفين، أو مهتاجين، أو مكتئبين، أو متحمسين بإثارة.

فكّر الآن في سبب إبداء الأشخاص مستوى توضيحات أقلّ من المعتاد؛ لأنّ ذلك سيوضح متى يكون التناقص دليلاً على الخداع، فالسبب الأول هو عدم وجود استثمار عاطفي فيما يقال؛ فالأشخاص يستخدمون التوضيحات بدرجة أقلّ عندما لا يعنيهم الأمر، أو أنهم يشعرون بالملل، أو غير مهتمين، أو أنهم شديدي الحزن. قد يفصح الفشل في مرافقة التوضيحات المتزايدة للحديث الذين يزيفون الاهتمام أو الحماسة.

تتناقص التوضيحات أيضاً إذا واجهت الشخص مشكلة في تحديد المراد قوله بدقة. فإذا كان الشخص يفكر في كلّ كلمة بدقة، وفيما يقال قبل نطقه، فلن يكون هناك كثير من التوضيح. وعند إلقاء خطاب للمرة أولى، أو ثانية، وسواء أمحاضرة كانت أم كلاماً ترويجياً لمدوب مبيعات، فإنّ مستوى التوضيحات سيكون أقلّ مقارنة بوقت لاحق عندما لا يكون بذل الجهد مطلوباً لانتقاء الكلمات اللازمة، علاوة على ذلك تتناقص التوضيحات كلما كان هناك تحذير بشأن الكلام، وقد لا يكون للتوضيحات ارتباط بالخداع، وقد يكون هناك حذرٌ لأنّ المخاطرة عالية: كالانطباع الأول عن المدير، والجواب عن سؤال قد تعقبه مكافأة ما، والكلمات الأولى لشخص يعجبك لحدّ الوله عن بعد. إضافة إلى ذلك يجعل التناقص

الشخص حذراً لما سيقوله، وقد يغري الشخص الجبان الميل نحو عرض عمل مربع ولكنه يخاف الأخطار المرتبطة في وضع العمل الجديد، وبسبب الصراع بين ما إذا كان عليه قبول العرض أو لا، يُفجع بثقل مشكلة ما سيقوله وطريقة قوله.

وإذا لم ترتب الكاذبة كذبتها مسبقاً، فإنَّ عليها الحذر أولاً، والتفكير بدقة بكل كلمة قبل نطقها. إنَّ المخادعين الذين لم يتدربوا، والذين مارسوا الخداع في كذبة ما، والذين فشلوا في توقع الأسئلة أو وقتها، يظهرون انخفاضاً في مستوى التوضيحات، وحتى لو تدربت الكاذبة على كذبتها، فقد تتخفف توضيحاتها بسبب تدخل عاطفتها؛ إذ تتدخل بعض العواطف، كالخوف، بتماسك الحديث.

يصرف عبء إدارة العواطف القوية الانتباه عن العمليات المعنوية بترابط الكلمات، فإذا كان المطلوب إخفاء العواطف، وليس فقط إدارتها، وإذا كانت العاطفة قوية، فمن المرجح عندها أن يجد الكاذب الذي أعدَّ كذبه جيداً مشكلة في نطقها، فتتخفف التوضيحات.

لقد استخدمت طالبات التمريض في تجربتنا مستوى توضيحات أقل، عندما كنَّ يحاولن إخفاء ردود أفعالهنَّ تجاه فيلم البتر للشخص المحروق، مقارنة بوصف مشاعرهن بصدق حيال فيلم الزهور، لقد حدثت هذه التوضيحات لسببين على الأقل: لم تتدرب الطالبات على الإعداد للكذبة المطلوبة، ولم يتح لهن الوقت الكافي للتحضير للكذبة، فتم استشارة العواطف القوية والخوف من الانكشاف استجابة للفيلم الدموي المعروض، فقد وجد كثير من الباحثين أيضاً أنَّ التوضيحات تكون أقل وضوحاً عندما يكذب أحدهم مقارنة بصدقته، حيث اشتملت هذه الدراسات على قليل من العواطف، ولكنَّ الكاذبين كانوا متدنيي الجاهزية والاستعداد.

في تقديمي للتوضيحات، ذكرت أهمية التمييز بينها وبين العلامات الخاصة، إذ قد تحدث تغيرات عكسية في كلِّ منها عندما يكذب أحدهم: تزداد زلات العلامات الخاصة وتتخفف التوضيحات، وتكمن الاختلافات الحاسمة بين العلامات الخاصة والتوضيحات في دقة الحركة والرسالة، ففي العلامات الخاصة، تظهر دقة الحركة والرسالة على درجة عالية من الوضوح؛ حيث لا تفي أيُّ حركة بالغرض، والحركة المحددة بدقة تنقل الرسالة

الدقيقة تماماً، أمّا التوضيحات فعلى النقيض من ذلك؛ فقد تنطوي على مجموعة كبيرة من الحركات، وقد تنقل رسالة مبهمة بدلاً من أخرى دقيقة، إنَّ رمز ربط الإبهام والشاهد هو للدلالة على أن: هذا حسن، إذن هناك طريقة واحدة للقيام بالرمز، فإذا ربط الإبهام بالوسطى أو الخنصر، فلن تكون الرسالة واضحة، والمعنى المحدد جداً هنا هو: هذا أمر جيد، أو: حسناً*، وعليه، لا تحمل التوضيحات معاني منفصلة عن الكلمات.

إنَّ مشاهدة أحدهم يستخدم التوضيحات دون سماع كلماته لا يكشف كثيراً عما يتحدث به، ولكن الأمر ليس كذلك إذا قام الشخص بحركة خاصة. والفرق الآخر بين حركات العلامات الخاصة والتوضيحات أنه، وعلى الرغم من ظهورهما في أثناء التحدث، فإنّه يمكن استعمال حركات العلامات الخاصة مكان الكلمة عندما لا يستطيع الأشخاص التحدث أو أنهم لا يريدون ذلك، في حين تحدث التوضيحات بحكم التعريف في أثناء الحديث فقط، وليس لاستبداله، أو عندما لا يكون الأشخاص غير قادرين على الكلام.

يتعيّن أن يكون مكتشف الكذب حذراً في تفسير التوضيحات مقارنة مع زلات العلامات الخاصة، وكما وضح سابقاً، يؤثّر خطأ أو ثلث ومخاطرة بروكاو في التوضيحات، ولكنهما لا يؤثران في زلات العلامات الخاصة، فإذا لاحظ مكتشف الكذب انخفاضاً في التوضيح، فعليه استبعاد الأسباب الأخرى جميعها (ما عدا الكذب) لدى الشخص الذي يريد بحذر اختيار كلّ كلمة، ولكن زلات العلامات الخاصة أقلّ غموضاً، والرسالة التي تنقلها مميزة لجعل تفسيرها أسهل على مكتشف الكذب، لا يحتاج مكتشف الكذب إلى معرفة المشتبه به مسبقاً لتفسير زلة العلامة الخاصة، إنَّ مثل هذا العمل ذو معنى بحدّ ذاته لتباين الأشخاص تبايناً كبيراً في معدل استخدام التوضيحات الطبيعي، ولا يمكن إصدار الأحكام عليهم ما لم يكن مكتشف الكذب لديه بعض الأسس للمقارنة، مثل باقي قرائن الخداع، حيث يتطلب تفسير التوضيحات معرفه سابقة؛ لأنّ اكتشاف الخداع صعب جداً في اللقاء الأول، وتقدم زلات العلامات الخاصة أحد احتمالات كشف الخداع.

* وهذه العلامة الخاصة تحمل معنى مختلفاً بديئاً في بعض بلدان جنوب أوروبا. لا تُعدّ العلامات الخاصة عالمية إذ تتفاوت معانيها باختلاف الثقافات.

إنَّ سبب شرح النوع التالي من حركات الجسم المموَّهة هو لتحذير مكتشف الكذب من خطورة تفسيرها على أنَّها قرائن على الخداع، وقد وجدنا مكتشفي الكذب يحكمون خطأً على الشخص الصادق أنه كاذب بسبب إظهاره الكثير من الحركات المموَّهة في العادة. وقد تكون الحركات المموَّهة علامة على اضطراب أحدهم، لكنها ليست كذلك دائماً. فضلاً على أنَّ ازدياد نشاط الحركات المموَّهة ليس علامة موثوقة على الخداع، ولكن الأشخاص يعتقدون بذلك.

تشمل الحركات المموَّهة الحركات جميعها التي فيها يقوم أحد أجزاء الجسم بتدليك جزء آخر، أو فركه، أو مسكه، أو قرصه، أو خدشه، أو التلاعب به، قد تكون مدة الحركة المموَّهة قصيرة جداً، أو قد تستمر مدة دقائق، ويبدو أنَّ غرض الحركات القصيرة منها لها أن يُعاد ترتيب الشعر، أو تنظيف الأذن، أو حكَّ جزء من الجسم، ويبدو أنَّ الحركات المموَّهة الأخرى، وخصوصاً الطويلة منها، لا طائل فيها؛ كبرم الشعر، وفرك الأصابع، والنقر بالقدم. تكون اليد في العادة، هي التي تقوم بهذه الحركات، وقد تكون أيضاً المستقبلية مثلها مثل أيِّ جزء آخر من الجسم. والمستقبلات الأكثر شيوعاً هي الشعر، والأذن، والأنف، ومقاطعة الرجلين، ومن الممكن تأدية الحركة المموَّهة في الوجه (كتحريك اللسان على الخدود، وعض الشفاه بالأسنان قليلاً)، أو بوضع رجل على أخرى، وقد تصبح الأدوات جزءاً من فعل المتلاعب؛ كعود الثقاب، أو القلم، أو مشبك الورق، أو السيجارة.

في حين تمت تنشئة معظم الأشخاص على عدم أداء السلوكات التي تكون في دورة المياه أمام العامة، إلا أنهم لم يتوقفوا عن أدائها، بل توقفوا عن ملاحظة أنهم يقومون بها. ولا يعني الأمر أنَّ الأشخاص غير مدركين تماماً للحركات المموَّهة لديهم، فإذا أدركنا أنَّ أحدهم يراقب إحدى حركاتنا المموَّهة، فسوف نتوقف عن القيام بها بسرعة أو نقلل من استعمالها، أو نموَّه استخدامها، حيث تغطي الإيماءة الأكبر بصدق الحركة العابرة، وحتى هذه الإستراتيجية المتقنة لإخفاء الحركة المموَّهة لا تؤدِّي بوعي، إنَّ الحركات المموَّهة موجودة على حافة الوعي، ولا يستطيع معظم الأشخاص التوقف عن القيام بمثل هذه الحركات مدة طويلة حتى لو حاولوا القيام بذلك عن قصد، فهم معتادون على استخدامها.

يناسب الأشخاص أن يكونوا مراقبين لا مؤدّين. عادة ما يُعطى للشخص الذي يقوم بحركة ما الخصوصية لاستكمالها حتى لو بدأت الحركة بغمرة المحادثة تماماً؛ فيشجع المتلقّي بنظره عند قيام آخر بحركة عابرة، ويعيد النظر فقط بعد الانتهاء منها، وإذا كانت الحركة من الأنشطة التي لا طائل فيها، مثل برم الشعر الذي يستمر طويلاً، عندها لا يستطيع الآخرون إشاحة نظرهم مدة طويلة، ولكنهم لا ينظرون مباشرة مطوّلاً لهذه الحركة.

إنّ عدم الانتباه المهذب لهؤلاء الأشخاص الذين يقومون بهذه الحركات عادة يمكن تعلمها أكثر والقيام بها دون تفكير، حيث إنّ مراقبة حركات مثل هذا الشخص تعدّ خارج نطاق اللياقة والتّهذيب، مثل توم مختلس النظرات، أمّا من يؤدي الحركة العابرة فلا غبار عليه، فعندما تتوقف سيارتان عند إشارة مرور، فإنّ الشخص الذي يرتكب الإساءة هو الذي يختلس النظر إلى آخر ينظف أذنه في السيارة المجاورة، وليس الذي ينظف أذنه.

تساءلت مع آخرين يدرسون مثل هذه الحركات عن سبب ممارسة الأشخاص حركة معينة دون غيرها، وهل يعني الأمر شيئاً إذا كانت حركة فرك بدلاً من حركة ضغط، أو كشّة بدلاً من حكّة؟ وهل هناك رسالة وراء حكّ اليد أو الأذن أو الأنف؟ يعود جزء من الإجابة إلى خصوصية الشخص، فكلّ شخص سمة مميزة في حركاته المفضلة، والنمط المعين من الحركات الدقيقة، فقد تكون حركة أحدهم برم الخاتم، ولآخر نبش البشرة الميتة المحيطة بالظفر، ولآخر قتل الشارب، لم يحاول أحد اكتشاف لماذا لا يوجد لدى الأشخاص حركة مفضلة على الحركات الأخرى، ولماذا لا يوجد لدى بعضهم حركة خاصة بهم. هناك بعض القرائن التي تشير إلى كشف بعض الحركات أكثر من عدم الارتياح، فقد وجدنا حركات نبش جلد لدى المرضى النفسيين الذين لا يعبرون عن الغضب، في حين كانت تغطية العيون شائعة بين المرضى الذين يشعرون بفعل معيب، ولكن هذه الأدلة مؤقّنة مقارنة بالنتائج العامة التي تشير إلى أنّ هذه الحركات تزداد عند عدم الراحة⁽²⁰⁾.

أثبت العلماء بدرجة معقولة اعتقاد الأشخاص العاديين أنهم يقلقون ويؤدون حركات قلقة عندما يكونون مرضى أو عصبيين على الأقل. تزداد حركات حكّ الجسم والضغط، والخلع، وتنظيف زاويتي الفم، وترتيب الهدام عند عدم الرّياح. وأعتقد أنّ الأشخاص

يُبدون أيضاً كثيراً من الحركات الدقيقة عند ارتياحهم وبسهولة، فيسمحون لشعرهم بالانسداد. وعندما يكونون مع رفقاتهم لا يهتمون بهندامهم.

يكون بعض الأشخاص أكثر عرضة للتجشؤ، والتلاعب، والانغماس في سلوكيات تكون في معظم الحالات قابلة للسيطرة ولو بصورة جزئية على الأقل، وإذا كان ذلك صحيحاً، عندها تكون الحركات المموّهة علامات على الانزعاج في الحالات الأكثر اتساقاً مع الطابع الرسمي فقط، ومع الأشخاص الذين لا يعلمون عن ذلك.

لا يعوّل على مثل هذه الحركات على أنّها علامات على الخداع؛ لأنها قد تشير إلى حالات أخرى كالانزعاج أو الراحة. ويعرف الكاذبون كذلك وجوب محاولتهم كبت حركاتهم العابرة، وينجح معظمهم لبعض الوقت، ولا يمتلك الكاذبون أيّ معرفة خاصة بذلك؛ فجزء مما هو شائع يشير إلى أنّ هذه الحركات علامات على الانزعاج وعدم الراحة، أو أنّها سلوك عصبي، ولكنّ الكاذبين لا يعرفون ذلك، ويعتقد كثيرون أنّ الكاذبين يقلقون، وأنّ ذلك القلق دليل على وجود خداع، عندما سألنا بعض الأشخاص كيف يعرفون ما إذا كان أحدهم كاذباً، كانت الإجابة أنّ العيون الخجلة والمراوغة هي التي تشي بالكاذب، لن تكون القرائن التي يعرفها الجميع، وتنطوي على سلوك يمكن تثبيطه بسهولة، ذات مصداقية إذا كانت الأخطار قوية، ولا يريد الكاذب أن يتم اكتشافه.

لم يبدُ على طالبات التمريض حركات مموّهة عند الكذب أكثر مما فعلن عند صدقهنّ، وقد وجدت بعض الدراسات ازدياداً في هذه الحركات في أثناء الخداع، وأعتقد أنّ اختلافات الأخطار هي ما يفسر هذا التناقض في النتائج، فعندما تكون الأخطار مرتفعة، فقد تكون الحركات متقطعة على عكس قوتها في أثناء القيام بها. فضلاً على أنّ الأخطار العالية تجعل الكاذب يراقب القرائن المعروفة القابلة للوصول، والسيطرة عليها مثل الحركات المموّهة. وقد تجعل الأخطار المرتفعة الشخص خائفاً من أن يتمّ اكتشافه؛ لذا، ينبغي أن يزيد عدم الارتياح من هذا السلوك. قد تزداد الحركات المموّهة، ويمكن مراقبتها وقد تختفي بعض الوقت، ثمّ تظهر بعد مدّة وجيزة، ثمّ بعد مدّة تتّمّ ملاحظتها وقمعها. ولمّا كان مستوى الأخطار مرتفعاً، عملت طالبات التمريض بجهد للسيطرة على حركاتهنّ. لم يكن هناك كثير من الأخطار في الدراسات التي وجدت أنّ حركات التلاعب المموّهة هذه تزداد في

أثناء الكذب؛ لذا، كان الوضع غريباً بعض الشيء، لهذا، ربّما يكون هناك قدر من عدم الارتياح لزيادة حركات التلاعب. لا توجد هناك مكاسب مهمة، أو خسارات نجاح، أو فشل في الخداع، ولا يوجد مسوّغ للكاذب لبذل الجهد في مراقبة حركات التلاعب وكتبتها. حتى لو كان تفسيري للحصول على نتائج متناقضة غير صحيح (تبقى تفسيرات ما بعد التقصي غير مؤكّدة حتى تُثبت بمزيد من الدراسات)، فإنّ النتائج المتناقضة نفسها سبب كافٍ كي يكون مكتشف الكذب حذراً حيال تفسير حركات التلاعب التي يقوم بها.

في دراستنا لكيفية اكتشاف الكذب، وجدنا أنّ الأشخاص أدلوا بأحكام على أولئك الذين أظهروا حركات دقيقة كثيرة أنّهم كاذبون. ولم يكن مهماً ما إذا كان الشخص الذي يقوم بهذه الحركات يقول الصدق أو يكذب. فقد وصفهم من رأيهم أنّهم غير صادقين عندما كانت حركات التلاعب التي أبدوها كثيرة. من المهمّ إدراك احتمال ارتكاب هذا الخطأ. ودعوني أستعرض الأسباب المتعدّدة؛ لكون حركات التلاعب المموّهة علامات لا يمكن الاعتماد عليها في الاستدلال على الخداع.

يختلف الأشخاص كثيراً في عدد حركات التلاعب التي يظهرونها ونوعها. ويمكن التصدي لمشكلة الفروق الفرديّة (مخاطرة بروكاو) إذا كان مكتشف الكذب لديه معرفة سابقة بالكاذب، ويستطيع إجراء مقارنات سلوكيّة.

يتداخل خطأ أو ثلثو مع تفسير حركات التلاعب بوصفها قرائن خداع؛ تزداد حركات التلاعب عندما يكون الأشخاص منزعجين، وهذه المشكلة تتكرّر مع باقي علامات الخداع الأخرى أيضاً، ولكنّها أكثر حدّة مع حركات التلاعب؛ لأنّها ليست فقط علامات عدم ارتياح، بل هي علامات ارتياح تظهر بوجود الأصدقاء أيضاً.

يعتقد الجميع أنّ إظهار حركات تلاعب كثيرة تفضح الخداع؛ لذا، سيحاول الكاذب كبتها. وعلى عكس تعابير الوجه التي يحاول الأشخاص السيطرة عليها، فإنّ حركات التلاعب سهلة التثبيت إلى حدّ ما، وينجح الكاذبون في تثبيت حركات التلاعب لجزء من الوقت تقريباً عندما تكون الأخطار مرتفعة.

درس عدد من الباحثين جانباً آخر من الجسم؛ هيئة الوقوف. ولكن، لم يُعثر على تسرّب أو قرائن على الخداع فيها. يعرف الأشخاص كيف يفترض بهم أن يجلسوا ويقفوا؛ فالوقوف المناسب لإجراء مقابلة رسمية ليس هو نفسه المفترض عند الحديث مع صديق. يبدو أنّ هيئة الوقوف تحت السيطرة تماماً، وإدارتها ناجحة عندما يقوم أحدهم بالخداع. لم أجد مع زملائي فروقاً في هذه الهيئة عندما كذب الأشخاص أو صدقوا.* بالطبع، ربّما لم نقس ذلك الجانب من الوقوف الذي يتغيّر، والاحتمال هو الميل إلى التقدّم نحو الأمام عند الاهتمام أو الغضب، والتراجع إلى الخلف عند الخوف أو الاشمئزاز. على كلّ حال، يجب على الكاذب المدفوع أن يكون قادراً على تثبيط جميع العلامات وأكثرها خفية لقرائن الوقوف على تلك العاطفة.

قرائن الجهاز العصبي اللاإرادية

حتى الآن، ناقشت الحركات الجسميّة التي تقوم بها العضلات الهيكلية. ولكن، ينتج الجهاز العصبي اللاإرادي أيضاً تغيّرات ملحوظة في الجسم نتيجة الاستثارة العاطفية: على صورة نمط معيّن من التنفّس، وتيرة البلع، وكمية التعرّق. (ستتم مناقشة تغيّرات الجهاز العصبي اللاإرادية في الوجه، مثل التورّد، والشحوب، واتساع حدقتي العينين، في الفصل القادم). تحدث هذه التغيّرات لا إرادياً عند استثارة العواطف، وهي صعبة التثبيط؛ ولهذا السبب، يمكن أن تكون قرائن خداع موثوقة يُعتدّ بها.

يقيس جهاز كشف الكذب تغيّرات الجهاز العصبي اللاإرادية التي يكون كثير منها واضحاً دون استخدام جهاز خاص، فإذا شعر الكاذب بالخوف، أو الغضب، أو الحماس، أو الأسى، أو الذنب، أو العار، فقد يزداد معدّل تنفّسه، ويثقل صدره، ويزيد من وتيرة البلع، أو يبدو عليه التعرّق.

* وجدت دراسة في الخداع أنّ هناك اعتقاداً يرى أنّ الذين يغيّرون وقفهم كثيراً كاذبون، على الرغم من إثبات عدم ارتباط هيئة الوقوف بالصدق في الواقع. انظر: «The Deception Judgments of Custom Inspectors and Laymen» Journal

اختلف علماء النفس على مدار عقود حيال ما إذا كانت كل عاطفة ترتبط بمجموعة محددة من تغيّرات الجهاز العصبي اللاإرادية، ويعتقد معظمهم عدم وجود مثل هذه المجموعات المحددة، ويعتقدون أيضاً أنّ الشخص يتنفس بسرعة أكبر، ويتعرق، ويزيد من وتيرة البلع عند استثارة أي عاطفة. وتشير تغيّرات الجهاز العصبي اللاإرادية إلى مدى قوة العاطفة، وليس إلى نوعها. ولكن هذا الرأي يتراجع مع ما يعرفه معظم الأشخاص؛ إذ يشعر الأشخاص بمختلف الأحاسيس عندما يخافون مثلاً مقارنة مع غضبهم. وهذا، كما يقول كثير من علماء النفس، بسبب تفسير الأشخاص للأحاسيس الجسدية نفسها بصورة مختلفة عما إذا كانوا خائفين مقارنة مع ما يكونون عليه في حالة الغضب، لم يثبت أنّ نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي بنفسه يختلف في الخوف مقابل الغضب⁽²¹⁾.

تتحدى أحدث دراساتي، التي بدأت عندما انتهيت من كتابة هذا الكتاب، وجهة النظر هذه. فإذا كنت مصيباً، ولم تكن تغيّرات الجهاز العصبي اللاإرادية نفسها لكل عاطفة، ولكنّها بدلاً من ذلك محددة، فقد يكون ذلك مهماً في الكشف عن الأكاذيب. وقد يعني ذلك تمكين مكتشف الكذب من اكتشاف ما إذا كان المشتبه به مستثاراً عاطفياً أم لا، وما نوع العاطفة المحسوسة أيضاً، إما بجهاز كشف الكذب، أو بمجرد المراقبة والاستماع (هل هو خائف أم غاضب؟ مشمئز أم حزين؟) في حين، تتوافر هذه المعلومات من الوجه كذلك، حيث يستطيع الأشخاص تثبيط كثير من علامات الوجه، كما سنبين في الفصل التالي. زدّ على هذا أنّ من الصعب مراقبة نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي.

لقد نُشرت دراسة واحدة من هذا النوع حتى الآن (انظر الصفحة 117). يجادل بعض علماء النفس البارزين في ما توصلت إليه، ويعارضونه تماماً. وتعدّ نتائج بحثي مثيرة للجدل، وغير مثبتة، لكنّ الدليل عليها قوي. وبمرور الزمن، سيكون ما توصلت إليه مقبولاً من قبل المجتمع العلمي.

على ما أعتقد، هناك مشكلتان تقفان في طريق قبول اكتشاف دليل مقنع يفيد أنّ العاطفة تمتلك نشاطاً مختلفاً في الجهاز العصبي اللاإرادي، وأعتقد أنني أملك حلولهما. حيث تكمن إحدى المشكلتين في كيفية الحصول على عينات عاطفية صادقة.

ولمقارنة تغيّرات الجهاز العصبي اللاإرادي في الخوف مع الغضب، لا بدّ أن يكون العالم متأكّداً من موضوع بحث قد درس كلّ عاطفة وحدها. ولّمّا كان قياس تغيّرات الجهاز العصبي اللاإرادي تتطلّب معدات معقدة، فعلى الشخص المشارك تقديم عينات العاطفة في المختبر، إلّا أنّ المشكلة تكمن في كفيّة استخلاص العواطف في وسط عقيم خالٍ من المثيرات، وغير طبيعي؛ إذ كيف ستجعل الأشخاص خائفين وغاضبين، لا عاطفيين في الوقت نفسه؟ إنّ هذا السؤال على قدر كبير من الأهمية؛ أي عدم جعل الأشخاص المشاركين خائفين وغاضبين في الوقت ذاته، فيما أدعوه وآخرين من العلماء بالخليط العاطفي. وما لم يُحتفظ بالعواطف منفصلة، وما لم تكن العينات صادقة، فلن تكون هناك طريقة لتحديد ما إذا كان نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي مختلفاً لكلّ عاطفة. وحتى لو كانت كذلك، ولو اشتملت عينات الغضب دائماً على بعض الخوف، وعينة الخوف على بعض الغضب، فستكون النتيجة أن تظهر تغيّرات الجهاز العصبي اللاإرادي متشابهة. ليس من السهل تجنّب الخلط، لا في المختبر ولا في الحياة الحقيقيّة، فالخلط أكثر شيوعاً من العواطف الصادقة.

كانت التقنيّة الأكثر شيوعاً لأخذ عينات العاطفة هي عن طريق سؤال الشخص المشارك عن تذكّر شيء مخيف أو تصوّره. ولنفترض أنّه تذكّر تعرّضه لهجوم سارق، عندئذٍ يجب على العالم أن يكون متأكّداً أنّه إضافة إلى الخوف من السارق لا يصبح الشخص غاضباً ولو بدرجة قليلة من السارق، أو من نفسه؛ لأنّه خائف، أو لأنّه غبي لدرجة تعريض نفسه للخطر تحدث أخطار الخلط نفسها بدلاً من حدوث العواطف الصادقة مع تقنيات إثارة العواطف الأخرى. لنفترض أنّ العلماء يعرضون فيلماً يثير مشاعر الخوف، وربما كان مشهداً من فيلم (ألفريد هيتشكوك)، المريض النفسي، (Psycho)، حيث يهاجم (توني بيركنز جانيت) لي فجأة، حاملاً سكّيناً في أثناء استحمامها. قد يصبح الشخص غاضباً من العالم لجعله خائفاً، وغاضباً من نفسه؛ بسبب خوفه، وغاضباً من (توني بيركنز)؛ بسبب مهاجمته (جانيت لي)، ومشمئزاً من منظر الدم، ومكتئباً؛ لمعاونة جانيت لي، ومتفاجئاً من الفعل، وهلّمّ جرّاً.

ليس من السهل التفكير بطريقة للحصول على عينات عواطف صادقة. حسب اعتقادي، لقد افترض معظم العلماء الذين درسوا الجهاز العصبي اللاإرادي ببساطة خطأ أنّ أفراد

العينة فعلوا ما يريدونه عندما طُلبَ إليهم ذلك، فانتخبوا بسهولة عينات العاطفة الصادقة المطلوبة، وفشلوا في اتخاذ أيّ خطوات؛ لضمان أو تأكيد كون عينات العاطفة الخاصة بهم صادقة بالفعل.

والمشكلة الثانية هي نتاج الحاجة إلى أخذ عينات العواطف في المختبر، ومن نتائج تأثير تقنية البحث. أنّ معظم أفراد العينة مدركون لذواتهم بشأن ما سيحدث لهم عندما يخضعون للتجربة، ثم يُضخّم ذلك. ولقياس نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي، يجب أن تكون الأسلاك موصولة بأجزاء مختلفة من جسم المشارك، وتتطلب مراقبة التنفس، ومعدّل ضربات القلب، ودرجة حرارة الجلد، والتعرّق - توصيل كثير من الأسلاك. إنّ مجرد الجلوس هناك موصولاً بالأسلاك، وبوجود العلماء يفحصون ما يجري داخل الجسم، وغالباً ما ينصبون آلات لتصوير؛ أيّ تغييرات مرئية، يُخرج معظم الأشخاص من العينة. الحرج بحدّ ذاته عاطفة، وإذا كانت تنتج نشاطاً في الجهاز العصبي اللاإرادي فستشوّه العواطف عبر كلّ عينة يحاول العلماء الحصول عليها. قد يُعتقد أنّ المشارك يتذكّر حدثاً مخيفاً في كلّ لحظة، وموقفاً يثير الغضب في مرحلة أخرى، ولكن ما قد يحدث هو الحرج في أثناء تذكّر الغضب والخوف. لم يتخذ العلماء أيّ إجراء للحدّ من الحرج، ولم يبحث أحد للتأكد أنّ الحرج لم يتداخل مع عينات العاطفة الصادقة.

استبعدت وزملائي الحرج عن طريق اختيار ممثلين محترفين أفراداً في عينة الدراسة⁽²²⁾. فالممثلون معادون أن يُختبروا، ولا ينزعجون عندما يشاهد الناس حركاتهم اليومية. وبدل أن يشعروا بالحرج، فإنهم يحبون فكرة توصيلهم بالأسلاك، ومراقبة ما يحدث داخل أجسامهم. ساعدت هذه الدراسة أيضاً على حلّ المشكلة الأولى وهي الحصول على عينات عاطفة صادقة.

يمكننا الاستفادة من سنوات تدريب الممثلين في تقنية (ستانسلافسكي) للتمثيل التي تجعلهم مهرة في التذكّر وإعادة اختبار العواطف. يمارس الممثلون هذه التقنية كي يستخدموا ذكريات - الحس في تصوير دور ما. في تجربتنا، طلبنا إلى الممثلين، في حين كانوا موصولين بالأسلاك والأجهزة، وبوجود كاميرات فيديو موجهة نحو وجوههم، أن يتذكروا ويشهدوا بكلّ قوتهم موقفاً شعروا فيه أنهم غاضبون غضباً لا مثيل له سابقاً

في حياتهم. ومن ثمّ موقفاً شعروا فيه بأكبر خوف، وحزن، ومفاجأة، وسعادة، واشمئزاز. لقد استخدم هذه التقنية علماء آخرون سابقاً، لكننا اعتقدنا أنّ فرصتنا في النجاح أكبر؛ لأننا استخدمنا ممثلين محترفين مدربين على هذه التقنية، ولن يشعروا بحرج. إضافة الى ذلك، لم نسلّم أنّ المشاركين في التجربة فعلوا ما طلبناه، وتحقّقنا من حصولنا على عينات نقية صادقة لا خليط من العواطف. بعد كلّ استرجاع للذاكرة، طلبنا إليهم تقييم القوة التي شعروا بها بالعاطفة المطلوبة، وما إذا شعروا بوجود عاطفة أخرى. لم يُحتفظ بالمحاولات التي أفاد بها المشاركون شهادتهم لعاطفة أخرى بالقوة نفسها للعاطفة المطلوبة.

سهلت دراسة الممثلين علينا تجربة تقنية أخرى لجمع عينات عواطف نقية صادقة لم تُستعمل من قبل، واكتشفنا هذه التقنية الجديدة؛ لإثارة العواطف بالمصادفة قبل سنوات في أثناء قيامنا بتجربة أخرى، ولمعرفة آليات تعابير الوجه، والعضلات التي تنتج ذلك التعبير المعين، أنتجت وزملائي بمنهجية آلفاً من تعابير الوجه، بتصوير كيفية تغيير كلّ تركيبة من حركات العضلات للشكل وتحليلها، ولدهشتنا عندما انتجنا حركات العضلات المرتبطة بالعواطف، شعرنا فجأة بتغيّرات في أجسامنا نتيجة نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي. ولم يكن لدينا أيّ سبب لتوقّع أنّ تحريك عضلات الوجه بتعمّد قد ينتج تغيّرات غير مقصودة في الجهاز العصبي اللاإرادي، ولكن ذلك حدث مراراً وتكراراً. وما زلنا لانعرف ما إذا كان نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي يختلف في كلّ مجموعة من حركات عضلات الوجه. لقد أعلّمنا الممثلين، بالتّحديد، عن العضلة المطلوب تحريكها في الوجه، وكان هناك ستة إرشادات مختلفة؛ واحد لكلّ عاطفة من العواطف؛ ولأنّ الممثلين غير مُخرجين لعمل تعبير الوجه حسب الطلب، أو الشعور بالحرج؛ لأنّ العلماء يشاهدونهم عند قيامهم بالتعبير، ولأنّهم بارعون في تمّصّ التعابير – استطاعوا الوفاء بمعظم طلباتنا بسهولة. لم نثق بهم فقط لإنتاج عينات عاطفية نقية صادقة، بل صوّرنا أداء وجوههم، واستخدمنا محاولاتهم فقط؛ كانت الأشرطة التسجيلية تظهر أنّهم انتجوا كلّ مجموعة من حركات الوجه المطلوبة.

وجدت تجربتنا أدلة قويّة على أنّ نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي ليس ذاته للعواطف جميعها، ولم تكن تغيّرات معدل نبضات القلب، ودرجة حرارة الجسم، والتعرق (ما قمنا بقياسه) نفسها لمختلف العواطف، مثلاً: عندما قام الممثلون بحركة عضلة الغضب في

وجوههم، وعضلة الخوف، (لم يُطلب إليهم إظهار العاطفة، بل القيام بحركة العضلة فقط)، أصبح معدّل نبضات القلب أسرع، ولكنّ أمراً مختلفاً حصل في درجة حرارة جلدهم؛ فقد ارتفعت درجة حرارة الجلد مع الغضب وانخفضت مع الخوف. أعدنا التجربة على عينة أخرى وحصلنا على النتيجة نفسها.

إذا حصل علماء آخرون على هذه النتائج عند محاولة تكرار التجربة في مختبراتهم، فقد يستطيعون معرفة ما الذي يحاول مكتشف الكذب تعلّمه من جهاز كشف الكذب. وبدلاً من مجرد محاولة معرفة ما إذا كان المشتبه به يشعر بأيّ عاطفة، قد يستطيع الشخص الذي يعمل على جهاز كشف الكذب من خلال قياس عدد من أنشطة الجهاز العصبي اللاإرادي معرفة نوع العاطفة، وحتى دون وجود آلة الكشف عن الكذب، وبمجرد النظر، قد يكون كاشف الكذب قادراً على ملاحظة التغيرات في نمط التنفّس، أو التّعرق، التي يمكنها أن تسهم في التقاط حدوث عاطفة معينة. يمكن الحدّ من الأخطاء في كشف الكذب المتمثلة بعدم تصديق الصادق وتصديق الكاذب، إذا كان نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي، والذي يعدّ تثبيطه أمراً صعباً للغاية، يكشف العاطفة التي يشعر بها المشتبه به.

حتى الآن، لم نكن نعرف ما إذا أمكننا تمييز العاطفة من خلال علامات نشاط الجهاز العصبي اللاإرادية المرئية والمسموعة، ولكن هناك سبب الآن لمعرفة ذلك. كيف تسهم علامات العواطف المعنوية، سواء في الوجه كانت، أم في الجسم، أم في الصوت أم في الكلمات، أو من الجهاز العصبي اللاإرادي، في تحديد ما إذا كان الشخص صادقاً أم كاذباً. وما الأخطار بوقوع الخطأ، والاحتياطات لتجنّبها، هي موضوع الفصل السادس.

أوضح الفصل الثاني وجود طريقتين رئيسيتين للكذب هما؛ الإخفاء والتزوير. حتى الآن، بحثنا في هذا الفصل إمكانيّة فضح محاولات إخفاء العاطفة بالكلمات، أو الصوت، أو الجسم. يلجأ الكاذب إلى التزوير إذا لم يشعر بالعاطفة، ولكنها مطلوبة، أو للمساعدة في التغطية على مشاعر مخفية. على سبيل المثال، قد يزور شخص ما نظرة الحزن عندما يعلم أنّ تجارة شقيق زوجته غير رابحة. فإذا لم يكن متأثراً، يظهر التعبير المزور ببساطة المظهر المناسب، ولكن إذا كان مسروراً في سريرته بسوء طالع شقيق زوجته، فسُخفي نظرة الحزن الزائفة هذه مشاعره الحقيقيّة. هل يمكن للكلمات، أو الصوت، أو الجسم،

أن تفضح مثل هذه التعابير الزائفة، وتكشف أن الأداء العاطفي غير صادق؟ لا توجد إجابة عن ذلك. لقد بُحِثَ في عيوب الأداء المزور للعاطفة بصورة أقل شمولاً من تسرّب العواطف المخفية، وأستطيع تقديم ملاحظاتي ووجهة نظري وحدسي وحسب.

على الرّغم من إمكانية ابتداء الكلمات للتلفيق، فليس من السهل لأيّ كان، صادقاً أم كاذباً، وصف العواطف بالكلمات. الشعراء فقط هم من يستطيعون وصف الفروق الدقيقة التي تكشفها العواطف، وقد يكون ادعاء العاطفة غير الصادقة بالكلمات أكثر صعوبة مقارنة بالعاطفة الصادقة، ولن يكون الادعاء فصيحاً، أو مفصلاً، أو مقنعاً، في العادة. إنّ الصوت، والجسم، وتعابير الوجه، هي ما يعطي معنى التفسير اللفظي للعاطفة، وأظنّ أنّ معظم الأشخاص يستطيعون تمثيل صوت الغضب، أو الخوف، أو الضيق، أو السعادة، أو الاشمئزاز، أو المفاجأة تمثيلاً متقناً لخداع الآخرين. في حين، يصعب إخفاء التغيّرات في نبرة الصوت التي تحدث مع هذه العواطف، لكن تزويرها غير صعب، وربما ينخدع معظم الأشخاص بالصوت.

من السهل تزوير بعض التغيّرات التي ينتجها الجهاز العصبي اللاإرادي، وفي حين يصعب إخفاء علامات العاطفة في التنفّس والبلع، فإنّ تزويرها لا يتطلّب مهارة خاصة. أمّا التعرّق فموضوع مختلف يصعب إخفاؤه وتزويره. في حين يمكن أن يستخدم الكاذب التنفّس والبلع للتزوير بإعطاء الانطباع بوجود عواطف سلبية، فإنني أرى أنّ القليل يفعل ذلك.

في حين يستطيع المخادع زيادة الحركات المموّهة؛ ليظهر بمظهر غير المرتاح، فإنّ معظم الأشخاص لا يتذكّرون القيام بذلك على الأرجح، وقد يكون الفشل في تضمين هذه الحركات، والتي يمكن تأديتها بسهولة، أن يفضح غيابها الادعاء على العكس من ذلك بشعور الخوف أو الضيق المقنع.

يمكن تمثيل الحركات التوضيحية، ولكنّ نجاح ذلك غير كبير؛ لإعطاء انطباع المشاركة والحماس لما يقال عندما لا يكون صادقاً. ذكرت تفسيرات الصحف أنّ الرئيسين السابقين؛ (نيكسون وفورد)، نُصحا بزيادة الحركات التوضيحية. وبمشاهدتهما في التلفاز، اعتقدت أنّ هذه النصيحة جعلتهما يبدوان زائفين؛ إذ من الصعب وضع حركة توضيحية عن قصد

في المكان الذي يجب أن توجد فيه بالارتباط مع الكلمات، فهي تميل إلى الظهور مبكراً، أو تكون متأخرة، أو تستمر مدة طويلة. يشبه هذا إلى حد كبير محاولة الانزلاق من خلال التفكير بكل حركة في أثناء القيام بها؛ فالتنسيق صعب.

لقد وصفت القرائن السلوكية التي قد تسرب معلومات مخفية، وتدلل على أن الشخص لم يتقن كذبه جيداً، أو تفضح عاطفة لا تتناسب مع الكذبة المتبناة. يمكن أن تفضح زلات اللسان، وزلات العلامات الخاصة، والمشاحنات، أنواع المعلومات جميعها؛ كالعاطفة، والأفعال الماضية، والخطط، والنيات، والخيالات، والأفكار، وما إلى ذلك.

وقد يشير الحديث غير المباشر أيضاً وهيئة الوقوف، وخطأ الحديث، وزيادة الحركات التوضيحية، إلى أن المتحدث حذر جداً لما يقال، ولم يمهد لكذبه، وهي علامات على العاطفة السلبية، ويحدث انخفاض في الحركات التوضيحية عند الملل.

تحدث نبرة الصوت المستثارة والمرتفعة، والحديث السريع، بوجود الخوف والغضب، وربما الإثارة أيضاً، ويتغير الصوت في الاتجاه المعاكس بوجود الحزن، وربما الشعور بالذنب كذلك. وقد تعدد التغيرات في التنفس، أو التعرق، أو زيادة البلع، والفم الجاف جداً علامات على العواطف القوية، وربما يكون من الممكن تحديد أي العواطف من هذه الأنماط سيتغير في المستقبل.

